يهدى ولا يباع

مشروع طباعة الكتب السلفية ١٢٧

نُصحُ المُؤمِنين

وتبيان منازل السائرين

شرح لقصيدة

السَّيرُ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ

للعلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى

راجعه وقدم له

أ. د. عاصم القريوتي   د. محمد هشام طاهري

تصنيف

الصغيِّر بن عمَّار

غفر الله له ولوالديه

نُصحُ المُؤمِنين
وتبيان منازل السائرين

شرح لقصيدة

السَّيرِ إلى اللَّهِ والدَّارِ الآخِرةِ

للعلَّامة عبدالرحمن بن ناصِرالسَّعدِيّ

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى

راجعه وقدم له

أ.د. عاصم القريوتي   د. محمد هشام طاهري

تصنيف

الصغيّر بن عمّار

غفر الله له ولوالديه

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

تقريظ الشيخ أ. د. عاصم القريوتي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن الله ﷻ خلق الخلق لأمر عظيم، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وإن السير والإقبال على الدار الآخرة يتطلب أمورا عظيمة لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، ولنيل مرضاة الله سبحانه، فالأمر يتطلب الإخلاص لله مع معرفة الدين الحق، وعبادة الله على بصيرة، وجمع بين الرجاء والخوف، وقلوب مليئة بمحبة الرحمن مع الإكثار من ذكره في السر والعلن، وتقرب إليه سبحانه بفعل الطاعات وترك المعاصي مع اعترافهم بالتقصير، والتحلي بالصبر على الطاعة بفعلها وعن المعاصي بتركها وعند المكاره بالتسليم لقضاء الله وقدره.

فالسائرون إلى الله راضون بما قسم الله لهم، شاكرون لما أنعم به عليهم، بالقلب والأقوال والأركان، متوكلون على الله مع بذل الأسباب، فعبدوه سبحانه كأنهم يرونه، ولم يخصوا بالخير والهدى أنفسَهم فحسب؛ بل نصحوا غيرهم -إرضاء لله وطاعة له- بالعلم والإرشاد والإحسان إلى كافة الخلق، لأن الإسلام دين رحمة بالعالمين.

وهم مع هذا حريصون على انتقاء الصحبة الصالحة للرقي بهم، كما تعلقت قلوبهم بالله، ولم تكن الدنيا أكبر همهم ولا مبلغ علمهم وشغلهم، بل جعلوا حركاتهم كلها فيها لله، وتيمَّموا لكل منزل يفضي إلى مرضات الله.

ولقد أبدع الشيخ العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته «السير إلى الله والدار الآخرة» -وعدتها ١٨ بيتا- حيث تناول فيها جوانب عظيمة من منازل السائرين إلى الله، منها ما سبق ذكره.

ولقد أحسَن أخونا الشيخ الدكتور الصغير بن عمار في شرحه الموسوم: «نُصح المؤمِنين وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائِرين»، فاعتنى بالنظم من حيث ضبطه وتحريره، واستفاد -كما أثبت- من تعليقات معالي للشيخ صالح العصيمي -نفع الله به- على المنظومة، وضمَّن شرحَه تعليقاتٍ نفيسةً في منازل السائرين إلى الله، مستفيدًا من مؤلفات ابن القيم -وبخاصة «مدارج السالكين»- وابن رجب وابن الجوزي وغيرهم من علماء المشرق والمغرب رحمهم الله جميعا، فرأيته شرحا نافعا، كتب اللهُ لشارحه الأجر والثواب، ووفقنا وإياه والمسلمين للسير إليه كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه/ عاصم بن عبدالله القريوتي

في مدينة الطائف

ليلة الجمعة ٢٧ من شهر صفر لعام ١٤٤٤ للهجرة

تقريظ الشيخ د. محمد هشام الطاهري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الدنيا والآخرة، أحمده سبحانه أوجد الابتلاء للتمييز بين السعداء والاشقياء، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له يفعل في ملكه ما يشاء، أشهد أن محمدا عبده ورسوله خير من عبد وسار إلى الله تعالى، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه والسائرين إلى الله تعالى، وعلى من سلك نهجهم فوافقهم علمًا وعملاً وخُلقًا وسُلوكًا، وبعدُ؛

فقد تصفَّحْتُ ما قام به أخونا الشيخ الدكتور/ الصَّغيِّر بن عمار -وفقه الله- مِن شرح مُيَسَّرٍ، وبيان مسهَّلٍ على منظومة «السير إلى الله والدار الآخرة» للعلامة السِّعدي، وسمّاه:

«نصح المؤمنين وتبيان منازل السائرين»

وألفيتُ شرحه نافعًا، ونقله سديدًا، مع ما أيَّد به شرحه من التقسيمات، ونقل العبارات، من كلام السائرين إلى الله تعالى من الصالحين من البريات؛ فجزاه الله خيرًا على ما بذل، وبارك فيه ورزقنا وإياه العمل، وصلى الله وسلَّم على خيّر خلقه محمدا، وعلى آله وأصحابه ومن بهديه اقتدى، والحمد لله رب العالمين.

كتبه/ د. محمد هشام الطاهري

١٤٤٣/١٢/١٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خَلَق الخلقَ ليعبدوه، وبالإلـٰهية يُفرِدوه، وأنزَلَ عليهم كتبَه، وأرسل إليهم رسُلَه، فانقسم الناسُ بذلك إلى سائرٍ إليه مُقرَّبٍ سَعِيد، ومُتَخلِّفٍ عن الرَّكب مُعَذَّبٍ بعيد، وصلَّى اللهُ وسلَّم على خيرِ خَلقِه، وإمامِ رسُلِه، محمَّدِ بنِ عبدِ الله. اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه، وعلى آلِه وصحبِه، ومَن استَنَّ بسُنَّته، وسار على دَرْبِه، واهتدَى بهديه.

أما بعد،

فهذا شرحٌ متوسِّط على «قصيدَة في السَّيْرِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَة» للشَّيخ العَلامَة عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السِّعْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفَّى سنة ١٣٧٦ هـ، سمَّيتُه: «نُصح المؤمنين وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائِرين: شرحٌ لِقَصِيدَةِ السَّيرِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَة»[١]، كتبته لنفسي ولِمَن شاء اللهُ نفعَه به مِن عباده، ممتثِلًا

١- أرسلت هذا الكتاب لما أنهيته سنة ١٤٣٥ لشيخنا صالح العصيمي -وفقه الله-، فردَّ قائلا: «نفع الله بك، وزادك علما... قرأتُ منه مواضعَ فَراقَ لي... دمتَ مباركًا».

فجزاه الله عن طلاب العِلم خير الجزاء.

قولَ نبيِّنا وإمامِنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أخَاهُ فليَفْعَلْ**».[١]

وسِياق الحديث إنَّما كان في تجويز رُقية المريض، وفيه الحرصُ على سلامة الأبدان، فكيف بسلامة القلوب والعقول والأديان؟!

ولهذا، وصفَ الناظمُ رَحِمَهُ اللَّهُ السائرين إلى الله واليوم الآخر بأنَّهم:

نَـصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِم   بالعِلْمِ والإِرْشَادِ وَالإِحْـسَـانِ

وهذه النصيحة لا يَقْصُرونها على الخاصة، بل هم ناصحون للجميع، كما قال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «**ويجِبُ أنْ يكونَ للعاقل نصيحةٌ مبذولَةٌ للعامَّة**». انتهى.

وما أعظمَ النصيحةَ بالعلم، حتَّى قال محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «**واحتياجُ الحيِّ إلى العِلم في هذا الزمن أصبحَ قرينَ احتياجِهِ إلى الطعام**». انتهى.

١- رواه مسلم (٢١٩٩).

٢- «روضة العقلاء» (ص ٣٤٧).

٣- «الآثار» (١/ ٥٥).

والعِلمُ الصحيح -كما قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ-[1]: «**يَرمي إلى إنشاء أرقَى أصنافِ الناس**»، وما أحوجَ أمَّتَنا إلى هذا النوع مِن الرُّقي.

هذا، واللهَ تعالى أسألُ بأسمائه الحُسنى وصفاتِه العُلى، أنْ يَكتُبَ لهذا الشرحِ القَبول، وأنْ ينفعَ به المسلمين، كما نفعَ بأصلِه، وأنْ يجعلَه لي ذُخرًا يومَ ألقاه، حينَ لا ينجُو مِن عذابِ الله إلَّا مَن رضي اللهُ عنه واجتباه، إنَّه وليُّ ذلك ومولاه.

وكتب

الصغيّر بن عمّار

ليلة الأربعاء ١٩ من شعبان لعام ١٤٣٥

الموافق لـ ١٧ جوان ٢٠١٤

بمدينة «كلارمون فيرون»، بفرنسا[2]

١- «أليس الصبح بقريب» (ص ١٧).

٢- ثمَّ أعدت تحريرَ هذا الكتاب مرارًا، واعتمدتُ عليه أثناء شرحي للمنظومة في أكثر مِن مناسبة، وكلُّها منشورة على الشبكة -بحمد الله وفضله-.

نصُّ المنظومة

قال الشَّيخُ العَلامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن نَاصِر السِّعْدِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَصِيْدَتِهِ المشهورة بـ «قَصيدَة في السَّيْرِ إلى الله والدَّارِ الآخِرَة»:

سَعِدَ الَّذينَ تجنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى ... وَتيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ
فَهُمُ الَّذينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ ... مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإيمانِ
وهُمُ الَّذِينَ بَنَوا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ ... بَيْنَ الرَّجَا وَالخَوْفِ لِلدَّيَّانِ
وهُمُ الَّذينَ مَلا الإلَهُ قُلُوبَهُمْ ... بِوِدَادِهِ ومحَبَّةِ الرَّحمنِ
وهُمُ الَّذينَ قَدَ اكْثروا مِنْ ذِكْرِهِ ... في السِّرِّ والإعْلانِ وَالأَحْيَانِ
يَتَقَرَّبُونَ إلَى المَلِيْكِ بِفِعْلِهِمْ ... طاعاتِهِ وَالتَّرْكِ للعِصْيَانِ
فِعْلُ الفَرَائِضِ وَالنَّوافِلِ دَأْبُهُم ... مَع رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ والنُّقْصَانِ
صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكارِهِ كُلِّهَا ... شَوْقاً إلى مَا فِيْهِ مِنْ إحْسَانِ
نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَا فَهُمُ بِهَا ... قَدْ أَصْبحُوا في جُنَّةٍ وأَمَانِ
شَكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ ... بِالقَلْبِ والأَقْوَالِ والأرْكَانِ
صَحِبُوا التَّوكُّلَ في جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ... مَعْ بَذْلِ جُهْدٍ في رِضَا الرَّحْمَنِ
عَبَدُوا الإلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ ... فَتبَوَّؤوا فِي مَنْزِلِ الإِحْسَانِ
نَصَحُوا الخليقَةَ في رِضَا محْبُوبِهِم ... بِالعِلْمِ والإِرْشَادِ وَالإحْسَانِ
صَحِبُوا الخَلائِقَ بِالجُسُومِ وإنَّما ... أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

بـــالله دَعْـــوَاتُ المشَـاهِــدِ كُلِّهَا ... خَوْفاً عَلى الإيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ[1]

عَـزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا ... قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِـــوَى الرَّحْمَـــنِ

حَــــرَكَاتُهُـــمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ ... لله لا لِلْـــخَـــلْقِ وَالشَّيْـــطَـــانِ

نِـــعْـمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبْلِ الَّتي ... تُفْضِي إلى الخَــيْرَاتِ وَالإِحْسَــانِ

١- رجَّحَ الشيخ عبد الرزاق العباد -نفع الله به- أنَّ هذا البيت هكذا:

رَعَوُا الحقائِقَ والمشَـاهِـدَ كُلَّهَا ... خَوْفاً عَلى الإيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ

وسيأتي التنبيه عليه أثناء الشرح -إن شاء الله تعالى-.

مدخل مهم بين يدي الشرح

ذكَر العلامةُ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «**قصيدة في السير إلى الله والدار الآخرة**»[1]، بعضَ منازِلِ السائرين إلى الله، **وهي مقامات العبوديَّة التي ينزِلُ بها الموحِّدُ في طريق سيره إلى الله في هذه الدنيا.**

والمقام: أصلُه مكانُ القيام، ولما كان القيامُ في الغالب لأجل العمَل كَثُرَ إطلاقُه على العمَلِ الَّذي يقوم به المرءُ، كما جاء في قول نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ [يونس: ٧١]، أي: عملي[2]، وقالت الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾[الصافات: ١٦٤]، أي: في العبودية.[3]

والمُرادُ بالمقامات والمنازل هنا: مراتِبُ العبوديَّة التي يترقَّى فيها المؤمنُ حتَّى يصل إلى رضوان الله.

واعلم أنَّ ترتيبَ هذه المقامات ليس باعتبار أنَّ السالِكَ يقطع المقامَ ويفارِقُه وينتقل إلى الثاني، كمنازِل السَّير الحِسِّي، هذا مُحال، ألا تَرى أنَّ

١- واعتمدت في هذا الشرح على النسخة التي صحَّحها شيخنا صالح العصيمي لهذا النظم.

٢- انظر: «التحرير والتنوير» (٢٣/ ١٩٢).

٣- انظر: «محاسن التأويل» (٨/ ٢٣٢).

البَصِيرةَ والإرادةَ والعَزم معه في كلِّ مقام لا تفارقه، وكذلك التوبة فإنَّها كما أنَّها مِن أوَّل المقامات فهي آخِرُها أيضا، بل هي في كلِّ مقام مُستصحَبَة.

ومِن المقامات ما يكون جامِعًا لمقامين، ومنها ما يكون جامِعًا لأكثرَ من ذلك، ومنها ما يندرِجُ فيه جميعُ المقامات، فلا يستحِقُّ صاحبُه اسمَه إلَّا عند استجماع جميعِ المقامات فيه.

فالتوبةُ جامِعَةٌ لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يُتَصَوَّر وجودُها بدونهما.

والتوكُّل جامِعٌ لمقام التفويض والاستعانة والرِّضا، لا يُتَصَوَّر وجودُه بدونها.

والسائرون في كُلِّ مقام مِن هذه المقامات نوعان: أبرار، ومقرَّبون، فالأبرار في أوائله، والمقرَّبون في ذِرْوَة سَنامِه، وهكذا مراتب الإيمان جميعُها، وكلٌّ مِن النوعين لا يُحصي تفاوتَهم، وتفاضُلَ درجاتِهم إلَّا الله.

وقد يعرِضُ له أعلى المقامات والأحوال في أوَّل بداية سيره، فينفتحُ عليه مِن حال المحبَّة والرضا والأُنس والطمأنينة ما لم يحصل بعدُ لسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور -مِن البصيرة، والتوبة، والمحاسبة- أعظم مِن حاجةِ صاحب البداية إليها، فليس في ذلك ترتيب

كُلِّيٌّ لازِمٌ للسلوك.(١)

١- انظر: «الإكسير: خلاصة أعمال القلوب من «مدارج السالكين» لابن القيم» (ص ٢٤-٢٥).

معنى السير إلى الله

والسير إلى الله: هو لزوم عبودية الله تعالى.

وهذا النوع مِن السير إنَّما يكون بالقلب، لا بالبدن.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «سفر الآخرة يُقطع بسير القلوب، لا بسير الأبدان». وقال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «**مَفاوِزُ الدنيا تُقطع بالأقدام، ومَفاوِزُ الآخرة تُقطع بالقلوب**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه». انتهى.

فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يَبلُغَ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

قال الحسن البصري: «يا قوم المداومةَ المداومةَ، فإن الله لم يجعل لعمل

١- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٤٣٤).

٢- «حلية الأولياء» (١٠/ ٥٢).

٣- «الفوائد» (ص ١٧٣).

المؤمن أجلاً دون الموت»، ثم تلا هذه الآية.[1]

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيَّد بحُبه، وصار في وثاق العبودية، فلم يبق له مَفزعٌ في النوائب، ولا ملجأ غيره، ويصير عدَّته في شدَّتِه، وذخيرتَه في نوائبه، وملجأَه في نوازله، ومستعانَه في حوائجه وضروراته.[2]

١- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع الرسائل» (١/ ٤٤٢).

٢- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٩).

الوصول إلى الله يكون في الدنيا والآخرة

واعلم -رحمك الله- أنَّ **الوصولَ إلى الله نوعان:**

أحدهما: في الدنيا.

والثاني: في الآخرة.

فأمَّا الوصولُ الدنيويُّ فالمراد به: أن القلوبَ تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنِست به، فوجدتهُ منها قريبا ولدعائها مُجيبا.

وأمَّا الوصولُ الأُخرَوِيُّ: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه.

ولكنَّهم في درجاتهم متفاوتون في القُرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القُرب والمشاهدة.[١]

فالعَبدُ في حياته إنَّما هو ماضٍ إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمُرُّ بمنازلَ لن يدخلَ الجنَّة حتى يقِفَ بها.

والشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى سيذكر بعضَها في هذه المنظومة اللطيفة التي -كما قال مصنِّفُها-[٢]: «**قد حصَّلت على كثير مِن منازل السائرين إلى الله، التي تُوصل صاحبَها إلى جنَّات النَّعيم في جِوار الربِّ**

١- انظر: «المحجة في سير الدُّلجة» (١/ ٤٤٧-٤٤٨) باختصار.

٢- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٩).

الكريم، وتمنَعُه مِن عذاب الجحيم والحجاب الأليم». انتهى.

وممَّن فصَّل هذه المنازل، شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «**منازل السَّائرين**»، والذي شرحه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العُجاب: «**مدارجُ السَّالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**»، وهو كتاب مبارَكٌ، ذاع سيطُه، وعمَّ نفعُه، ذكَر فيه مؤلِّفُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ منازِلَ كثيرةً بعضُها واجب وبعضُها مستحَب.

والذي سيذكره الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى هو خلاصة لطيفة، تصلُح أنْ تكون كالمَدْخَل لهذا الباب العظيم مِن تزكية النفوس.**

التحلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرذائل

بدأ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر عنوان مؤلفه، وهو: «قَصيدَة فِي السَّيْرِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرَة».

والسير إلى الله والدار الآخرة أعظمُ مطلوب يرجوه العبد، وإذا حثَّ العبدُ السيرَ في الدنيا فإنه سيصل بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون سيرُه صالحًا في الظاهر والباطن.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**والطريق الموصِل إلى الله هو سلوكُ صراطِه المستقيم، الذي بعث اللهُ به رسولَه وأنزل به كتابَه وأمر الخَلقَ كلَّهم بسلوكه والسير فيه.**

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الصراط المستقيم، تركَنا مُحَمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي أدناه، وطَرفه في الجنَّة، وعن يمينه جَوَادٌّ، وعن يساره جَوَادٌّ، وثَمَّ رِجالٌ يَدعُون مَن مرَّ بِهم، فمَن أخَذ في تلك الجَوَاد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنَّة، ثُمَّ قرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام: ١٥٣]. أخرجه ابن

١- «المحجة في سير الدُّلجة» (١/ ٤٤).

جرير[1] وغيره.

فالطرِيق الموصل إلى الله واحد، وَهُوَ صراطه المستقيم، وبقية السُّبُل كُلُّهَا سُبُل الشيطان، مَن سلَكها قُطِعَت به عن الله، وأوصلَته دارَ سَخَطِهِ وغضَبِه وعقابه». انتهى.

فليس كُلُّ مَن سار وصَل، ولكنَّ الذي يصل هو الذي اتَّبَع واقتفى طريقَ المرسَلين ظاهرًا وباطنًا، ولهذا كانت معرفة الطريق والسعي فيه مع الاستعانة بالله وعدم العجز، رأسَ الأمر.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ»**.[2]

وهذا كلام جامع نافع، محتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة.[3]

فينبغي الحرصُ على الخير مع عدم نسيان أنَّك لن تصل إلَّا بتوفيق الله تعالى، وإذا عرَض لك شيءٌ فلا تعجِز ولا تَفتُر.

١- «جامع البيان» (٩/ ٦٧١).

٢- رواه مسلم (٢٦٦٤).

٣- انظر: «بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار» (٤١-٤٦).

يقول العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**فمتى حرِصَ العبدُ على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلَك أسبابَها وطُرُقَها، واستعان بربِّه في حُصولِها وتكميلِها: كان ذلك كمالَه، وعنوانَ فلاحِه**. ومتى فاته واحدٌ مِن هذه الأمور الثلاثة: فاتَه مِن الخير بحسبها...». انتهى.

فإذا حقَّقْتَ هذه الأمور الثلاثة، بلَّغَكَ اللهُ مُبتغاكَ، وفي الحديث: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ**»[٢].

ومِن جميل كَلِم ابن الجوزي قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**مَن تفكَّر في عواقِب الدنيا أخَذَ الحذَر، ومن أيقنَ بطُول الطريق تأَهَّبَ للسفر**». انتهى.

١- «بهجة قلوب الأبرار» (٤١-٤٢).

٢- رواه الترمذي (٢٤٥٠). وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٥٤).

٣- «صيد الخاطر» (ص ٩).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سَعِـــدَ الَّذيـــنَ تَجنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَـمَّـمُـوا لِـمَنَـازِلِ الـرِّضْـوانِ

بدأ الشيخ رحمه الله تعالى بذكر أمرين عظيمين ينبغي أن يتَّصفَ بهما كل سائر إلى الله:

الأمر الأول: هو التخلي عن كل ما يعوق ذلك السير.

والأمر الثاني: التحلي بكل ما يفيد في ذلك السير.

[سَعِـــدَ الَّذيـــنَ تَجنَّبوا سُبُلَ الرَّدَى]

ينبغي للسائر إلى الله أنْ يتجنَّب كلَّ أمر يَعُوقُ سيرَهُ، ويُضعِفُ مشيهُ، ويحولُ بينه وبين مُبتغاه، وذلك أن السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره **ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين**: قوةٍ علمية، وقوةٍ عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل...

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة

والفلاح...»[١]

وهذه المعاطب والعوائق بَيَّنها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بقوله[٢]: «وأما الْعَوَائِق فهي أنواعُ المخالفات ظَاهرهَا وباطنها، فإنَّها تعُوق القلب عَن سيره إلى الله وتقطع عَلَيْهِ طَرِيقه، وهِي ثلاثةُ أُمُور: شِرك، وبدعة، ومعصية، فيزول عائق الشِّرك بتجريد التَّوْحِيد، وعائق الْبِدْعَة بتحقيق السّنة، وعائق المعْصِيَة بتصحيح التَّوْبَة.

وهذه العَوَائِقُ لا تتبين للْعَبد حتَّى يَأْخُذَ فِي أهبة السَّفَر ويتحقَّق بالسير إلى الله وَالدَّار والآخرة، فحِينَئِذٍ تظهر له هذه العَوَائِق، ويحِسُّ بتعويقها له بِحَسب قُوَّة سيره وتجرُّده للسَّفر، وإلَّا فما دَامَ قَاعِدًا لا يظْهر له كوامنها وقواطعها». انتهى.

واحذَرْ كَمائِنَ نفْسِكَ اللَّاتِي متَى ... خرَجَتْ عليكَ كُسِرتَ كَسْرَ مُهانِ

ومِن عقوبات المعاصي: أَنَّها تُضْعِفُ سَيْرَ القَلبِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخرة، أو تَعُوقُهُ أو تُوقِفُهُ وتَقْطَعُهُ عن السَّيْرِ، فلا تَدَعُهُ يَخْطُو إلى اللهِ خُطْوَةً، هذا إنْ لم تَرُدَّهُ عن وُجْهَتِهِ إلى وَرائِهِ، فالذَّنْبُ يَحْجِبُ الوَاصِلَ، ويَقْطَعُ السَّائِرَ،

١- انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ١٨٨).

٢- «الفوائد» (ص ١٨٨)، وانظر: فصلا في «قواطع الطريق إلى الله» في كتاب «الفوائد» (ص ٢٠٨).

ويُنَكِّسُ الطَّالِبَ، والقلبُ إنَّمَا يَسِيرُ إلى اللهِ بِقُوَّتِهِ، فإذَا مَرِضَ بالذُّنوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ القُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ، فإنْ زالَتْ بالكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عن اللهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ.(١)

١- «الجواب الكافي» (ص ٧٦).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وَتيَمَّـمُوا لـمَنَــازِلِ الـرِّضْــوانِ]

تيمَّمُوا، أي: قصدوا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا [١].

والمعنى: وقَصَدُوا لمنازلِ الرِّضْوانِ.

فهم تَخَلَّوْا عما يشين، وتَحَلَّوْا بما يزين.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذكر في هذه المنظومة ما تَحَلَّوْا به فأوجبَ لهم كمال المحبة، ولم يشتغل ببيان ما تَخَلَّوْا عنه، **لأن التحلي يُثمر التخلي**، فإن من ملئ قلبه بالمقامات الكاملة صدَّته عن التلطُّخ بنجاسات القلوب من الشهوات والشبهات. [٢]

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٣]: « **وقد أجمع السائرون إلى الله أنَّ القلوب لا تُعطَى مُناها حتَّى تصِلَ إلى مولاها**، ولا تصلُ إلى مولاها حتى تكونَ صحيحةً سليمةً، ولا تكونُ صحيحةً سليمةً حتى ينقلب داؤها فيصيرَ

١- انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٣٥٧).

٢- من تعليق شيخنا العصيمي على المنظومة (ص ٤). وانظر: شرح المصنف (ص ١٣-١٤).

٣- «الجواب الكافي» (ص ٧٩).

نفسَ دوائها. ولا يصحُّ لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرَضُها، وشفاؤها مخالفتُه، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد». انتهى.

منزلة الإخلاص والاتباع

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

فَــهُمُ الَّـــذينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ مُـتَـشَـرِّعِينَ بِشِـرْعَةِ الإيـــمـانِ

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا البيت **شرطي قبول العبادة**، وهما:

- الإخلاص.
- والاتباع.

الإخلاص

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فَــهُمُ الَّـــذينَ اخْلَصُوا في مَشْيِهِمْ]

فينبغي للسائر إلى الله تعالى أن يكونَ مخلصا في سيره، لأنَّ مَن لم يخلِص يُتعِبُ نفسَه فيما فيه خُسرانُ.

قال مالك بن دينار: «**قولوا لمن لم يكن صادقا لا يتعنَّى**»[1]، أي: لا يُتعب نفسَه، لأنَّه يعمل فيما لا ينفعه، بل يَضُرُّه.

١- «صيد الخاطر» (ص ٢٨٨).

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافِرِ يملأ جِرابَه رملًا يثْقِلُه ولا ينفعه**». انتهى.

وعُرِّف الإخلاص بأنَّه: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.[٢]

وقيل هو: خُلوصُ القلب من تألُّه سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخَلَصَ لله، فلم يتمكن منه الشيطان.[٣]

وقيل هو: تصفية القلب من إرادة غير الله تعالى.[٤]

إخلاصُنا لله صفُّ القلبَ مِنْ ... إرادةٍ سِواهُ فافهَم يا فَطِنْ

فقَلبُك إذا صفَّيتَه من كل مراد غيرِ الله جل وعلا، فإنَّك مخلِص، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- في هذه المنظومة، قولُ المصنف:

حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ ... لله لا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ

١- «الفوائد» (ص ٦٢).

٢- قاله القشيري، ونقله عنه النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص ٣٢)، و«المجموع شرح المهذَّب» (١/ ١٧).

٣- انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٣٣٥).

٤- مِن تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة. وانظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٣-١٤)، وأقوالًا أخرى في تعريف الإخلاص عند «منزلة الإخلاص» من كتاب «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٩).

فينبغي للعبد أن يكون لله وبالله ومع الله، وهذا هو الذي يجد الوَصلَ يومَ القيامة، لأنَّ الصراطَ الذي يوصِلُك إلى الله متَّصِل بالله[١]، ومَن لم يكن عاملًا لله انقطع ولم يصِل، ولهذا قيل: «**ما كان لله دام واتَّصَل، وما كان لغير الله انقطع وانفصَل**».[٢]

ومِن بدائع ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «مَن أحب تصفية الأحوال، فليجتهد في تصفية الأعمال.

قال أبو سليمان الدَّاراني: **من صفَّى صُفِّيَ له، ومن كدَّرَ كُدِّرَ عليه**، ومَن أحسن في ليله كُوفِئَ في نهاره، ومَن أحسن في نهاره كُوفِئَ في ليله». انتهى.

ولقد اشتدَّ خوفُ السلَّف مِن الرياء، وذلك لعِظَمِ عنايتهم ومعرفتهم بالإخلاص.

قال سهل التَّستُري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا يعرِفُ الرِّياء إلَّا مخلص**، ولا النِّفاق إلَّا

١- انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٤).

٢- وروي في الأثر -ولا يصح-: «**إذا كان يومُ القيامة جيءَ بالدنيا فَيُميَّزُ منها ما كان لله، وما كان لِغَيرِ الله رُميَ به في نارِ جَهنمَ**». انظر: «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٢٠).

٣- «صيد الخاطر» (ص ١٢-١٣).

مؤمن، ولا الجهل إلَّا عالم، ولا المعصية إلَّا مطيع».[١]

ولَمَّا حضرت محمدَ بنَ المنكَدِر الوفاةُ جزع فدَعوا له أبا حازم فجاء، فقال له ابنُ المنكدر: إن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[الزمر: ٤٧]، فأخاف أن يبدو لي مِن الله ما لم أكن أحتسب. فجعلا يبكيان جميعاً.

فقال له أهلُه: دعوناك لتخفف عليه فزدته، فأخبرهم بما قال.

وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: **ويلٌ لأهل الرِّياء من هذه الآية.**

وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بهم النار: العالم، والمتصدِّق، والمجاهد.[٢]

وعــالــمٌ بـعـلـمِــهِ لـم يـعـمَـلَــنْ　　مُـعَـذَّبٌ مِـن قـبـلِ عُـبَّــادِ الــوَثَــنْ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**فمَن أصلَحَ سريرَته فاحَ عَبيرُ فضلِه، وعبَقَت القلوبُ بنَشْرِ طِيبِه،** فاللهَ اللهَ في السرائر، فإنَّه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهِر». انتهى.

فينبغي للعبد أن يجاهد نفسَه في طلب الإخلاص والثبات عليه، فالنية

١- «مختصر شعب الإيمان» (ص ٩٦).

٢- «المحجة في سير الدُّلجة» (١/ ٤٥٦).

٣- «صيد الخاطر» (ص ١٥٤).

محلُّها القلبُ، والقلبُ يتقلَّبُ، وقديمًا قيل: «**مَن شهِد في إخلاصِهِ الإخلاص، احتاج إخلاصُهُ إلى إخلاص**».

فنقصان كل مخلص في إخلاصه: بقدر رؤية إخلاصه، **فإذا سقَط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلِصًا**.[1]

ومن ابتُلي بالعُجب، فليُفَكِّر في عيوبه وذنوبه، وفي هذا يقول ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وإن أُعجبت بخيرك، فتفكَّر في معاصيك وفي تقصيرك وفي معايبك ووُجوهه، فوالله لتجدَنَّ مِن ذلك ما يغلِبُ خيرَك، ويعفي على حسناتك، فليَطُل همُّك حينئذٍ، وأَبْدِل مِن العُجْب نَقصًا لنفسِك». انتهى.

١- انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٠) وما بعدها، فإنَّه مهم للغاية، **وفيه سُبُل الخلاص مِن رضا العباد بعمله وسُكونه إليه**.

٢- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص ٤٧).

الاتباع وموافقة السنة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[مُـتَشَرِّعِينَ بِشِـرْعَةِ الإيـــمـانِ]

ذكر هنا الشرط الثاني لقبول العمل، وهو: الاتباع، فإن الله -جل وعلا- ذكر في آيات كثيرة أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان على سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١١- ١١٢]، وقد فُسِّر إسلامُ الوجه لله بما يتضمَّن إخلاصَ قصدِ العبدِ لله بالعبادة له وحده وهو محسِن بالعمل الصالح المشروع المأمور به.

وهذان الأصلان جماع الدين أنْ لا نعبد إلَّا الله وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع.[١]

شَـرْطُ قَـبُولِ السَّعْــيِ أنْ يَجْتَمِـعَا فِـيهِ إِصَـابَـةٌ وَإِخْـلَاصٌ مَـعَـا
لِلَّـهِ رَبِّ الْعَــرْشِ لَا سِـــوَاهُ مُـوَافِقُ الشَّـرْعِ الَّـذِي ارْتَضَـاهُ

والعبد إنَّما يدخل في الإسلام بنطق الشَّهادتين -لا إله إلَّا الله محمّد رسول الله -:[٢]

ومُحصَّلُ هذه الشهادة: أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى هذين الأصلين ينبني الإسلام، وكلُّ ما في الكتاب والسنة تفصيل لما تضمَّنه هذان الأصلان، وكل ما نافى هذين الأصلين فهو مناف للكتاب والسنّة، أجنبي عن دين الإسلام.[٣]

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٥١٤ – ٥١٥).

(٢) انظر: «كأس السلسبيل من فوائد حديث جبريل» للصغير بن عمار (ص ٤٦ – ٥٥).

٣- وانظر «رسالة الشّرك ومظاهره» للميلي (ص ٦٣).

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[١]

وكُـنْ مُخْلِصًا لِلّـهِ وَاحْـذَرْ مِنَ الرِّيَا   وَتَـابعْ رَسُـولَ اللهِ إِنْ كُـنْتَ تَـعْبُـدُ

وليس الشأن في العمل إنَّما الشأنُ في حفظ العمل مما يفسده ويُحبطه، فالرِّياء وإن دقَّ مُحبطٌ للعمل، وهو أبوابٌ كثيرة لا تُحصَر، وكونُ العمل غيرَ مقيَّد باتِّباع السنة أيضًا موجبٌ لكونه باطلًا.[٢]

ونقل العلامة عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على ذلك، بقوله[٣]: **«ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة»**. انتهى

ومن أقوال التابعي وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لا يكن همُّ أحدِكم في كثرةِ العَمَل، ولكن ليكن همُّه في إحكامِه وتَحسِينِه**، فإن العبدَ قد يُصَلِّي وهو يَعصي اللهَ في صلاته، وقد يَصومُ وهو يَعصي اللهَ في صيامِه»[٤].

فمَن جمع اللهُ له بين هذين الأصلين أفلح وسعد، ومن فاته الأمران (أي:

١- منظومة «منهج الحق منظومة في العقيدة والأخلاق» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع شرح الشيخ عبد الرزاق العبَّاد (ص ٥٧).

٢- «الوابل الصيّب» (ص ٩).

٣- «فتح المجيد» (ص ٤٠٤).

٤- «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٣).

الإخلاص والاتباع) أو أحد منهما خسِرَ خُسرانا مبينا، ومن كان تارة وتارة استحق من الخير والثواب والمدح بقدر إخلاصه ومتابعته قِلَّةً وكثرةً وقوةً وضعفًا...»[1]

---

١ - «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٣).

منزلة الخوف والرجاء والمحبَّة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُــمُ الَّذِيــنَ بَنَوا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَـيْـنَ الرَّجَـا وَالخَـوْفِ لِلدَّيَّـانِ

ذكر هنا أن الذين يسيرون إلى الله –جل وعلا– قد بَنَوْا منازل سيرهم بين منزلتين عظيمتين، وهما: الخوفُ والرجاء. وسيكملهما الشيخ فيما سيأتي بمنزلة ثالثة، وهي: المحبة.

ولا تقوم العبادة إلَّا على الخوف والرجاء، **وقد جمع الله بين هاتين المنزلتين في آيات كثيرة، منها**: قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله جل ذكره: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾[الأنعام: ١٦٥]، ومدح أنبياءه بأنهم: ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾[فصلت: ٤٣]، وغير ذلك من الآيات التي لا تُحصىَ إلا بكُلفة.

والخوف والرجاء متلازمان لا ينفك عنهما العبد، فكُلُّ راجٍ خائف مِن

فَوات ما يرجوه، كما أنَّ كُلَّ خائف راجٍ أمنَه ممَّا يخاف.[1]

١- انظر: «الروح» لابن القيم (ص ٣٠٥).

منزلة الرجاء

والرجاء: أمَلٌ يحدو العبد إلى الله -جل وعلا- طَمَعًا في حصول مطلوبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**الرجاء**: حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو: الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير»، ثم قال[٢]: «**والرجاء يكون مع بذل الجُهد وحُسن التوكل**». انتهى

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]...

فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء

١- انظر: «مدارج السّالكين» (١/ ٤١٩)؛ و«الروح» لابن القيم (ص ٣٠٥).

٢- ولهذا عرَّفَ شيخنا صالح العصيمي الرجاء بقوله: «**أمل العبد بربه في حصول المقصود مع بذل المجهود وحسن التوكل**». انتهى (ص ٤ من تعليقه على هذه المنظومة).

صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا، فهو المغرور. [١]

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وكان الحسن يقول: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، **لو أحسَن الظنَّ بربِّه لأحسَن العمل.**

قال أبو الوفاء بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعَلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم. ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:**

١- انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٤٤). وفيه فصل مهمٌّ في الذين اعتمدوا على عفو الله فضيَّعوا أمرَه ونهيه (ص ٣٢).

٢- «الجواب الكافي» (ص ٤٥). وانظر فصلا نافعا في «الفرق بين الرجاء والتمني» في آخر كتاب «الروح» له (ص ٣٠٤).

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات...

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧ – ٦١]...». إلى آخر ما قال عليه رحمة الله ورضوانه.

قيل لوهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنا نرجو، فقال: «**فلا والله ما رجا عبد قط حتى يخاف**، ثم قال: كيف تجترئ أن ترجو رضا من لا يُخاف غضبه إنما كان الراجي خليل الرحمن إذ يخبرك الله عَزَّوَجَلَّ عنه، قال: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾[البقرة: ١٢٧]، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ

أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]» [1]. فعلى العبد أن يعمل، وعليه أن يرجو ويطمع، فبالعمل والطمع يحصُلُ له النَّجاح [2].

١- «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٢).

٢- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ١٩٩) للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

منزلة الخوف

والخوف: هو فرار القلب من الله -جل وعلا- فزَعًا منه.

وصفة الخوف مِن الله تعالى هي أجمع صفات الخير في الإنسان؛ لأنَّها صفة للملائكة المقرَّبين، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل: ٥٠].[1]

قال ابن أبي العزِّ الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، **وكلُّ أحد إذا خِفته هرَبتَ منه إلَّا الله تعالى فإنك إذا خِفتَه هرَبتَ إليه، فالخائف هارِبٌ مِن ربِّه إلى ربِّه**». انتهى.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الذاريات: ٥٠].

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كلُّ ما يُصيبُ الإنسانَ مِن محَنِ الدنيا ومصائبِها وأمراضها وخصوماتها ومن جميع بلائها، لا يُنْجيه مِن شيء

١- «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩/ ١٨٠).

٢- «شرح الطحاوية» (ص ٢٣٧).

٣- «الآثار» (٢/ ٩٧).

منه إلَّا فرارُه إلى الله». انتهى.

وسمَّى اللهُ الرجوع إليه فرارًا، لأنَّ في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز.

فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه.[1]

ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]...

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله».[2]

١- «تفسير ابن سعدي» (ص ٩٥٨).

٢- انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٨١ وما بعدها) باختصار. وانظر منه: «منزلة الفرار إلى الله» (١/ ٣٤٨).

ولن يستقيمَ العبدُ في سيره إلى الله إلَّا إذا استصحبَ منزلتي الرجاء والخوف، فالرجاء يعصمك من القُنوط من رحمة الله، والخوف يعصمك من الأمن من مكر الله، وإذا اختلَّ أحدُهما تضرَّرَ سير العبد، وربَّما انقطع.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولما كان الخوف كالسَّوط، فمتى ألحَّ بالضرب بالسَّوط على الدابة تلفت، فلا بد لهذا الضرب من حادي الرجاء، يطيِّب لها السير بحدائه حتى تقطع». انتهى.

وبوَّبَ البخاري في «صحيحه» في كتاب الرقاق، «**باب: الرجاء مع الخوف**».

قال بعض السَّلَف: «الرجاءُ قائد والخوف سائق، والنفس بينهما، كالدابة الحَرون».

فمتى فتر قائدها وقصَّر سائقها وقفت فتحتاج إلى الرفق بِهَا والحدو لها حتى يطيب لها السير.[٢]

يقول حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته «الميمية في الوصايا والآداب العلمية»:[٣]

١- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٤٤٣).

٢- المرجع السابق (١/ ٤٤٣).

٣- (ص ٢٥٠-٢٥٣) مع شرح الشيخ عبد الرزاق العبَّاد.

واقْــنُتْ وبينَ الرَّجَا والْخَوْفِ قُمْ أبَدًا تَخْشَى الذنُوبَ وتَرْجُو عَفْوَ ذَي الكَـرَمِ
فالخوفُ ما أوْرَثَ التقوَى وحَثَّ عَلى مَرْضــاةِ رَبّـي وهَجْـرِ الإثْمِ والأثَـــمِ
كَــذا الرَّجَا ما عَلى هذا يحثُّ لِـتَصْ ديـقٍ بِمَــوْعودِ رَبِّي بالجَــزَا العَظِـمِ
والخَـــوْفُ إنْ زادَ أفْـضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا يُفْضِي الرَّجـاءُ لأَمْــنِ المَـكْرِ والنِّقَــمِ
فَــلا تُفَـرِّطْ ولا تُفْـرِطْ وكُنْ وَسَطًا وَمِــثْلَ مَـــا أمَـرَ الرَّحْمَـــنُ فاسْتَقِــمِ

والخوف والرجاء لا يتمَّان إلا بمنزلة ثالثة وهي: منزلة الحب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «**القلب في سيره إلى الله** ﷻ **بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه،** فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف». انتهى.

وَكُـنْ سَائِـرًا بَـيْنَ الْـمَـخَـافَةِ وَالرَّجَـا هُمَا كَـجَنَـاحَـيْ طَـائِرٍ حِـينَ تَـقْصِـدُ[٢]

١- انظر: «مدارج السّالكين» (١/ ٣٨٦).

٢- من منظومة «منهج الحق» لابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٦١ من الشرح).

منزلة المحبة

ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

وَهُمُ الَّذينَ مَلا الإلَهُ قُلُوبَهُمْ بِوِدَادِهِ ومحَبَّةِ الرَّحمنِ

فهؤلاء الذين خافوا الله ورجَوْه لا يستقيم سيرهم إلا إذا أحبوا الله جل وعلا وأقبلوا عليه بقلوبهم.

والمحبَّةُ لا تُحَدُّ بحَدٍّ أوضحَ منها، إذ الحدودُ لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً.[1]

ولهذا يقول العلامة محمد مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والمحبَّةُ من المعاني التي يَلتبِس شرعيُّها بشِركيِّها، وتدخُل في العقائد الباطنة...». انتهى.

ومع هذا، عرَّفها بعضُ أهل العلم بقولهم: **هي تعلق القلب بالله** -جلَّ وعلا-.[3]

وحقيقة هذه المحبة: أن لا يَرَى محبوبًا سواه، وكلُّ محبوبٍ غيره تبعٌ

١- انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٨)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٨٩).

٢- انظر: «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٢٦١).

٣- هكذا عرفها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للمنظومة (ص ١٦)، وزاد شيخُنا العصيمي على هذا التعريف، فقال: «**المحبة: تعلق القلب بالله، ودوام ملاحظة مرضاته**». (ص ٥ من تعليقه على هذه المنظومة).

لمحبته.[١]

والوِدَادُ: صَفْوُ المَحَبَّة وخالِصُها ولُبُّها وأَلْطَفُهَا وَأَرَقُّهَا[٢].

ومِن أسماء الله تعالى «الوَدُودُ»، أي: الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وُدًّا، وإخلاصا، وإنابة من جميع الوجوه.[٣]

وفي «نونية» ابن القيم قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهـو الـوَدُودُ يُـحِـبُّـهُم وَيُـحِـبُّهُ   أحـبابُـهُ والفـضـلُ لِلْـمَـنَّـانِ
وهو الَّـذي جَـعَـلَ المَـحَبَّـةَ في قُلُو   بِـهِـمُ وَجَـازَاهُم بِـحُـبٍّ ثَـانِ

ومنزلة الحب هي أصل المنازل كلِّها، ومنها تنشأ جميعُ الأعمال الصالحة

١- كما أفادني بذلك فضيلة الشيخ محمد هشام الطاهري -أعظم اللهُ نفعَه، وبارك في جهوده-.

٢- انظر **مراتب المحبة** في: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣٢-٢٣٥)؛ و«روضة المحبين» (ص ٢٨-٥٨)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٨٨).

٣- انظر: «تفسير ابن سعدي» (ص ١١١٥)، و«النهج الأسمى في شرح الأسماء الحسنى» للنَّجدي (١/ ٤١٩-٤٢٩).

والنافعة، والمنازل العالية.[1]

وهي -كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ-[2]: «المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون. وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام» ... انتهى.

يقول شيخ الإسلام[3]: «**بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا من محبة الله**». انتهى.

والله -جل و علا- يُحِبُّ ويُحَبُّ، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤]، **وأخبرَ النبيُّ**

١- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٦).

٢- «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٥).

٣- «الفتاوى» (١٠/ ٣٣).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُحبُّ الله ورسولَه، ويُحبُّهُ اللهُ ورَسولُه[١].

وأما مَن أنكر المحبة من أهل البدع، فإنهم قد فرَّغوا قلوبَهم مِن حب الله -جل وعلا-، ولهذا كانوا أوحشَ الناس قلوبا، بخلاف أهل السنة والجماعة الذين هم أقرب الناس إلى ربهم، لأنَّهم اعتقدوا في ربهم الاعتقاد الصحيح الذي يحدُوهم نحوَ مزيدٍ مِن العِلم والعمل.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وإنكارُ محبة العبدِ لربِّه هو في الحقيقة إنكارٌ لكونه إلـهًا معبودًا، كما أنَّ إنكارَ محبَّتِه لعبده يستلزم إنكارَ مشيئته وهو يستلزم إنكارَ كونه ربًّا خالقًا، فصار إنكارها مستلزمًا لإنكار كونه ربَّ العالمين، ولكونه إلـه العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود». انتهى.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فمَن عرَف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاعَ الطريق على

١- رواه البخاري (٢٨٤٧)، ومسلم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد السَّاعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٢- «الفتاوى» (١٠/ ٤٧).

٣- «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٤).

القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب». انتهى.

وعن الحسن بن أبي جعفر، قال: سمعت عتبة الغلام يقول: «**مَن عرف الله أحبه، ومن أحب الله أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه، وطوباه، وطوباه**»، فلم يزل يقول: «**وطوباه، وطوباه**» حتى خر ساقطا مغشيا عليه.[١]

وقال بُدَيل بنُ ميسَرة: «**من عَرَفَ ربَّه أحبه، ومن أحبه ترك الدنيا وزهد فيها**».[٢]

وفي «القصيدة النونية»:

عَـرَفُوهُ بالأَوصَافِ فَامتَلأَتْ قُلُو ... بُهُمُ لَـهُ بالحُـــبِّ والإيمـــانِ
فـتَطَايَرَت تلك القُلوبُ إليه بالـ ... أشواقِ إذْ مُلِئَـت مِن العِرْفَـــانِ
وأَشَـــدُّهُـــم حُـــبًّا لَهُ أَدْرَاهُـمُ ... بِصِفَاتِـــهِ وحَقَـــائقِ القُــــرآنِ
فـــالحُـــبُّ يَتبَعُ للشُّعورِ بِحَسبِهِ ... يَـقْوَى وَيَضعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ
ولـــذَاكَ كَانَ العَارِفُونَ صَـفَاتِهِ ... أَحْبَـابَهُ هُـــم أَهلُ هَذا الشَّـانِ
ولـــذَاكَ كَانَ العَـالِمُونَ بِــرَبِّـهِمْ ... أَحْبَـــابَــهُ وَبِشِــرْعَةِ الإِيــمَانِ
ولـــذَاكَ كَانَ المُنكِرُونَ لَهَا هُـمُ الـ ... أَعْـــدَاءُ حَقًّـا هُمْ أُولُو الشَّنَــآنِ

١- «الحلية» (٦/ ٢٣٦).

٢- المصدر السابق (٣/ ١٠٨).

ولـــــذَاكَ كَانَ الجَاهِلُـونَ بِذَا وَذَا بُـــغَضَـاءَهُ حَقًّـا ذَوِي الشَّنَـــآنِ

ومع هذا، فلا يستقيم الحبُّ إلا مع الخوفِ والرجاءِ، ولكل منزلة من هذه المنازل حدٌّ لو جاوزته لوقعَ العبدُ فيما لا يرضاهُ الله تعالى. وإنما يصحُّ السيرُ إلى الله إذا وُجد قدرٌ من كل معنى من هذه المعاني الثلاثة.

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**العبادة إنما تبنى على ثلاثة أصول**: الخوف والرجاء والمحبة. **وكل منها فرض لازم ، والجمع بين الثلاثة حتم واجب**، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد الله بواحد منها وأهمل الآخرين، فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف، والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إلى التعبد نشأت من إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء». انتهى.

وقال ابن القيم[٢]: «الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، **والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح**». انتهى.

١- «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» ضمن «مجموع الرسائل» (١/ ١٦١-١٦٢).

٢- «الفوائد» (ص ٩٨).

وما أجمل قول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**اعلم أن محركات القلوب إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ **ثلاثة** : المحبة والخوف والرجاء. **وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة.**

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢]. **والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق. فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه**، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، **والرجاء يقوده.**

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره». انتهى.

---

١ - «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٣-٧٤).

الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد

ومن الأسباب التي تُستَجلَبُ بها مَحَبَّةُ ربِّ الأرباب [١]:

- معرفة الله تعالى ومطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.
- معرفة نعمة الله على عباده، ومشاهدة بره وإحسانه.
- معاملة الله بالصدق والإخلاص، وإيثار محاب الله على محاب العبد، ومخالفة الهوى.
- انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.
- الخلوة به وقت النزول الإلـٰهي لمناجاته، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
- مجالسة المحبين الصادقين.
- التفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء.

١- انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٣-٢٢٤)، و«زاد المعاد» (٢/ ٥-٨)، و«استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (١/ ١٨٥-١٩٤) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب»، و«جامع العلوم والحكم» عند شرح حديث الولي (رقم ٣٨) (ص ٥٥٢).

- دوام الذكر مع حضور القلب.
- قراءة القرآن بتدبر وتفهم لمعانيه وما أريد منه.
- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.
- تذَكُّر ما وَرَدَ في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم.
- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وملاك ذلك كله أمران:

استعداد الروح لهذا الشأن،

وانفتاح عين البصيرة.

وبالله التوفيق.[1]

١- «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٤).

منزلة الذكر

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُــمُ الَّذيــنَ قَدَ اكْثروا مِنْ ذِكْرِه   في السِّــرِّ والإعْـلانِ والأَحْـيَـانِ

ذكر في هذا البيت أن هؤلاء القوم مِن حُبِّهم لله جل وعلا، أكثروا من ذكره سبحانه، لأنَّ مَن أحبَّ شيئا أكثر من ذكره.

قال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه: علامة حب الله كثرةُ ذكره، فإنك لن تحبَّ شيئا إلا أكثرت ذكره.

وقال فتح الموصلي: المحب لله لا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال ذو النون: من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر، قذف الله في قلبه نور الاشتياق.[1]

فالمُحِبُّون إذا نَطَقُوا نَطَقُوا بالذِّكر، وإذا سَكَتوا انشغلوا بالفِكر.[2]

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «لو صحَّت محبَّتُك لاستوحشت ممَّن لا يذكِّرُك بالحبيب. واعجبًا لمن يدَّعِي المحبة ويحتاج إلى من يذكره

١- انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٦٨٠).

٢- «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (١/ ١٥٤-١٥٥) ضمن «مجموع الرسائل».

٣- «الفوائد » (ص ٩٧).

بمحبوبه، فلا يذْكُره إلا بمذكِّر! أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب». انتهى.

والذكر: إعظامُ الله وحُضُورُه في القلب واللِّسان أو أحَدِهما.[١]

وفي «فتاوى اللجنة الدائمة»[٢]: «**ذكر الله سبحانه عام، يشمل**: فعل الأوامر، واجتناب النواهي، ويشمل: التسبيح والتهليل والتحميد جهرًا وسرًا، وقراءة القرآن ونحو ذلك مما شرعه الله من الأقوال والأفعال، وليس منه الطبل والتصفيق والذكر الجماعي، بل ذلك بدعة لا يجوز». انتهى.

ومنزلة الذكر برهان من براهين المحبة، ولهذا أردف الشيخ منزلة المحبة وما قبلها من الخوف والرجاء بهذا البيت، فقال:

وَهُـمُ الَّذيـنَ قَدَ اكْثَروا مِنْ ذِكْرِهِ ... في السِّـرِّ والإعْـلانِ وَالأَحْـيَـانِ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال

١- من تعليق شيخنا العصيمي على رسالته «الباقيات الصالحات من الأذكار بعد الصَّلوات» (ص ٣).

٢- (٢٤/ ١٧٠).

تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]... في آيات كثيرة.

ومنزلة الذكر، هي: منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائما يترددون.[1]

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومن **أعظم مقويات الإيمان ومُغَذياته: اللَّهَجُ** بذكر الله والإكثار من دعائه والإنابة إليه في السراء والضراء...». انتهى.

وفي سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله بن بُسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا قال: يا رَسُولَ الله إنَّ شَرَائِعَ الإسْلَامِ قد كَثُرَتْ عليَّ، فأخبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قال: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله**».[3]

١- «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٨).

٢- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ٦١).

٣- رواه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩١)، و«الكلم الطيب» (٣).

=

وعن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: قال رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيلِ أنْ يُكَابِدَهُ، وبَخِلَ بِالمالِ أنْ يُنْفِقَهُ، وجَبُنَ عَنِ العَدُوِّ أنْ يُجَاهِدَهُ، فليُكْثِرْ ذِكرَ الله**».[1]

قلت: وفيه إشارَةٌ إلى تَعَدُّد أبوابِ الخير، وأنَّ الله يَفتَحُ على عبادِه بما شاء كيف شاء، سُبحانه.

والأحاديث في باب الذكر كثيرة.[2]

شكا رجلٌ إلى الحسن قساوة قلبه، فقال: «**أَذْنِه مِن الذكر**».[3]

=

قلت: وهذا الحديث هو الذي ختم به ابن رجب زياداته على «الأربعين النووية».

١- رواه الطبراني (١١١٢١)، والبزار (٤٩٠٤)، واللفظ له، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ١٤٩٦).

٢- **انظر على سبيل المثال فصلا في**: «فضل الذكر والحث عليه» في كتاب «رياض الصالحين» للحافظ النووي رَحِمَهُٱللَّهُ، وفصلا في: «الترغيب في الإكثار من ذكر الله تعالى سر وجهرا والمداومة عليه، وما جاء فيمن لم يكثر ذكر الله تعالى» في كتاب «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٠٢-٢٠٧).

٣- «الزهد» للإمام أحمد (١٥١٠)، و«الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (٤٨).

=

القلوبُ الميتة تحيا بالذكر، كما تحيا الأرضُ الميتة بالقَطر.[١]

بـِـذِكْـرِ الله تَـرْتَــاحُ القُــلُــوبُ وَدُنْـــيَـانَا بـــِذِكْـرَاهُ تَطِيـــبُ

وقال عبدُالله بن عَوْن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ذِكرُ النَّاسِ داء، وذِكرُ الله دواء**».

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقًا[٢]: «إي والله، فالعَجَبُ منَّا، ومِن جهلنا، **كيف ندَعُ الدواء، ونقتحم الداء؟!**». انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصُّغرى»[٣] التي أوصى بها أبا القاسم التُّجيبي المغربي: «وأمَّا ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض: فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، **لكن مما هو كالإجماع**

=

وفي بعض الكتب: «**أذِبْه بالذكر**» مِن الإذابة، وذلك في مقابلة القسوة، وفي أخرى: «**أدِّبْه بالذكر**» مِن الأدب، والذي نقلته هنا: «**أَدْنِه مِن الذكر**» أي: قرِّبه مِن مجالس الذكر واجعله ملازمًا للذاكرين.

والمعنى واحد لأنَّ الذكر إذا لازم العبدُ مجالسَه وأهلَه أذاب قسوةَ قلبه ابتداءً، وحلَّاه بالأدب انتهاءً، فهنيئًا للذاكرين.

١- «لطائف المعارف» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٩).

٢- «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٦٩).

٣- «الفتاوى» (١٠/ ٦٦٠).

بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شَغَل العبدُ به نفسَه في الجملة...». ثم ذكَر الأدلة على ذلك، وخَتَمَ بقوله: «والدلائل القرآنية والإيمانية بَصَرا، وخَبَرا، ونَظَرا، على ذلك كثيرة». انتهى.

واعلم أنَّ صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر[1].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأنْ أُسبِّحَ الله تعالى تسبيحاتٍ أحبُّ إليَّ مِن أن أنفق عددَهن دنانير في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ».

وقال عبيد بن عمير: «تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري ذهبا».

وقال بعض السلف: «ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك».

قام رجل إلى ابن المبارك في جنازة فسأله عن شيء، فقال له: «يا هذا سَبِّح، فإنَّ صاحبَ السرير مُنِعَ من التسبيح»[2].

قال كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«من أكثر ذكر الله برئ من النفاق»**.

ويشهد لهذا المعنى أن الله وصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلَّا قليلا، فمَن أكثر ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا خُتِمَت سورة المنافقين

١- «الوابل الصيب» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٤١).

٢- «أهوال القبور» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٦).

بالأمر بذكر الله، وأن لا يُلهي المؤمن عن ذلك مالٌ ولا ولدٌ، وأنَّ مَن ألهاه ذلك عن ذكر الله فهو من الخاسرين.(١)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

١- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٦٨٠).

والمصنِّف أشار إلى أنَّ عبادة الذكر تكون في كل وقت، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[في السِّرِّ والإعْـلانِ والأَحْيَـانِ]

أي أنَّهم يذكرون اللهَ تعالى في السِّرِّ والعَلَن، وفي كل حِينٍ أي: زمَن، وهذه هي حال المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

وهكذا كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«كان رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرُ اللهَ على كل أحيانه»**.[1]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«قال اللهُ تبارَكَ وتعَالَى: يا ابْنَ آدمَ، إذَا ذَكَرْتَنِي خَالِيًا ذَكَرْتُكَ خالِيًا، وإذَا ذَكَرْتَنِي في مَلإٍ، ذَكَرْتُكَ في مَلإٍ خَيْرٍ مِنَ الَّذِينِ تَذْكُرُنِي فيهِم»**.[2]

قال عبد الله بن أبي الهذيل: «إنَّ الله لَيُحِبُّ أنْ يُذكر في السوق، ويُحِبُّ أنْ يُذكر على كل حال، إلَّا في الخلاء».

١- رواه مسلم (٣٧٣).

٢- رواه البزار (٥١٣٨)، وصحَّحَه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٨٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقًا على هذا الأثر[١]: «ويكفي في هذه الحال استشعارُ الحياء والمراقبة والنِّعمة عليه في هذه الحالة وهي مِن أجلِّ الذكر، **فذكرُ كلِّ حالٍ بحسب ما يليق بها**، واللائق بهذه الحال التقَنُّعُ بثوب الحياء مِن الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له لو بقي فيه لقتله». انتهى.

والذكر هي العبادة الوحيدة التي أمرنا اللهُ تعالى أن نكثر منها، وبقيَّةُ العبادات طلَب اللهُ تعالى منا أن نقيمها ونؤديها، أما الذكر فأمرنا بالإكثار منها، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥]؛ كما أنَّ طلَبَ العلم هو العبادة الوحيدة التي أمر اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يطلُب زيادته؛ فقال آمرًا إياه -والأمةُ تبعٌ له-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].[٢]

١- «الوابل الصيب» (ص ٦٨). وانظر « كتاب الأذكار» للنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٢).

٢- من زيادات الشيخ محمد هشام الطاهري -حفظه ربي ونفع به-.

القدْر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات

إذا تقرَّر فضلُ الذكر، وتشوَّقت النفوس للحوق بمنازل الذاكرين، فلسائل أن يسأل: «**كيف أكون مِن الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات؟**».

وهذا سؤالٌ عظيم يجدُر بكلِّ مسلم أنْ يقفَ عنده ويعرِف جوابَه، وقد جاء عن السلف في معنى الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات نقولٌ عديدةٌ منها:[١]

ما روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «المراد: يذكرون الله في أدبار الصلوات وغدوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلَّما استيقظ مِن نومه، وكلَّما غدا أو راح مِن منزله ذكر الله تعالى».

وقال مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ: «لا يكون مِن الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات حتَّى يذكر اللهَ قائمًا وقاعدًا ومضطجِعًا».

وأجابَ عن هذا السؤال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله[٢]: «**إذا واظب على الأذكار المأثورة[٣]، المثبتة صباحًا ومساء في الأوقات والأحوال**

١- انظر: «الأدعية والأذكار» لعبد الرزاق العباد (١/ ٤٢-٤٣)، فهو مفيد جدا في بابه.

٢- انظر: «كتاب الأذكار» للنووي رَحِمَهُٱللَّهُ (ص ١٢).

٣- أي مما أُثر من الذكر عن الشارع. قاله ابن علان رَحِمَهُٱللَّهُ في «الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية» (١/ ١٢٦).

المختلفة، ليلاً ونهارًا، وهي مبينة في كتاب: «عمل اليوم والليلة»، **كان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، والله أعلم**». انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الوصية الصُّغرى»[1]: «**وأقلُّ ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كالأذكار المؤقَّتة في أوَّل النهار وآخره، وعند أخْذ المضجع، وعند الاستيقاظ مِن المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيَّدة مثل ما يقال عند الأكل، والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد، إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بـ«**عمل اليوم والليلة**».

ثم ملازمة الذكر مطلقا وأفضله: «**لا إلـٰه إلا الله**». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «**سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**» أفضل منه.

ثم يعلم أن **كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله**.

١- «الفتاوى» (١٠/ ٦٦٠).

ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسا يتفَقَّه، أو يُفَقِّه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها فهذا أيضا من أفضل ذكر الله». انتهى.

وقد ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] أنَّ **مجالسَ الذكر لا تختص بالمجالسِ التي يُذكر فيها اسمُ الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوِه، بل تشمل ما ذُكر فيه أمرُ الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه،** فإنَّه ربما كان هذا الذكرُ أنفعَ من ذلك، لأنَّ معرفةَ الحلال والحرام واجبةٌ في الجُملة على كُلِّ مسلم، بحسب ما يتعلَّق به في ذلك، وأما ذكرُ الله باللسان، فإنَّ أكثرَه يكون تطوعًا، وقد يكون واجبًا كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وعمومًا، **فمن أعظم الأمور التي بها يكون الإنسان ذاكرًا**:[2]

١ – إقامة الصلوات في أوقاتها.

٢ – المحافظة على الأذكار المقيَّدة، ذوات الأسباب.

٣– المحافظة على مجالس العلم؛ فإنَّها مِن أفضل الذكر.

٤– قراءة القرآن الكريم وتلاوته.

٥– الذكر المطلق.

١– «مجموع الرسائل» (٢/ ٢٩٥).

٢– من إفادات الشيخ محمد هشام الطاهري –نفع الله به–.

ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة

ذكر الله جل وعلا هو ملاك الأمر، وهو العبادة التي لا تنقطع حتى في الجنة، فإنَّ أهل الجنة يُلهمون التسبيحَ والذكر كما يُلهمون النَّفَسَ. وهذه عبادة تلَذُّذٍ، لا عبادة تكليف، فإنَّ التكليف انقطع بدخول الجنة، لأنَّ الآخرة دار الجزاء والدنيا دار الابتلاء، والآخرة دار الحَصاد والدنيا دار الجدِّ والاجتهاد.

فالأعمال كلُّها يفرغ منها، والذكر لا فراغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. **المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه وعليه يبعث.**[1]

أَحَـــسِبتُــمُ أَنَّ اللَّيَـــالِي غَيَّـرَتْ ... عَــهْدَ الهَـوَى لا كان مَــن يَـتَـغَـيَّرُ
يَـفنَى الزَّمَانُ ولَيسَ يَفنَى ذِكْرُكُم ... وعلى مَحَـبَّـتُـكُـــمْ أمُـــوتُ وأُحْشَـرُ

وهاهنا فائدة لطيفة شريفة ذكرها الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس**» -وهي رسالة عظيمة في هذا الباب-، وفيها: «فإنَّ أعلى نعيم في الجنة ما يحصل فيها من معرفة الله ومشاهدته، فإنَّ علم اليقين يصير هناك عين اليقين، وتتجدَّد معرفة عظيمة لم

١- انظر: «لطائف المعارف» (ص ٤٠٣).

تكن موجودة قبل ذلك؛ بل ولم تخطر على قلب بشر، **وكذلك توحيد أهل الجنة ودوام ذكرهم هو من أكمل لذاتهم، ولذلك يُلهَمون التسبيح، كما يُلهَمون النَّفَس**.

قال ابن عيينة: «**لا إلـٰه إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا**».

وكذلك تَرَنُّمُهم بالقرآن وسماعه، وأعلاه سماعه من الله ﷻ، **فأين هذا مِن تلاوة أهل الدنيا وذكرهم؟** وأما سائر العبادات فما كان منها فيه مشقة على الأبدان، فإن أهل الجنة قد أسقط ذلك عنهم؛ وكذلك ما فيه نوع ذُل وخُضوع كالسجود ونحوه.

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصل بها لأهل المعرفة في الدنيا، فإنه يحصل لهم في الجنة أضعافا مع راحة الجسد من مشقة التكاليف التي في الدنيا، **فتجتمع لهم راحة القلب والبدن على أكمل الوجوه**.

وهذا مثل الصلاة، فإنَّ العارفين في الدنيا إنما يتنعَّمون بما فيها مِن المناجاة وآثار القرب، وما يرِدُ عليهم من الواردات في تلاوة الكتاب، ونحو ذلك مِن نعيم القلوب، وربما يستغرقون به عن الشعور بتعب الأبدان، فهذا القدر الذي حصل لهم به التنعُّم في الدنيا يتزايد في الجنَّة بلا ريب، لا سيما في أوقات الصلوات؛ فإنَّ أكملَهم مَن ينظر إلى وجه الله ﷻ كلَّ يوم مرتين، بُكرةً وعشية، في وقت صلاة الفجر وصلاة العصر، وإلى ذلك أشار النبيُّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقِب ذكره رؤيةَ الربِّ سبحانه في حديث جرير البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالنعيم الحاصل لأهل الجنة بالرؤية والمخاطبة في هذين الوقتين أكملُ مما كان حاصلا في الدنيا، وكذلك صلاة الجمعة فإنَّهم يجتمعون في وقتها في يوم المزيد ويتجلَّى لهم سبحانه.

فتبين بهذا أن نعيم الجنة أكمل من نعيم الدنيا مطلقا، وسواء في ذلك نعيم الأبدان بالأكل والشرب والجماع، ونعيم القلوب والأرواح بالمعارف والعلوم والقرب والاتصال والأنس والمشاهدة.

فظهر بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[النمل: ٨٩]، هو على ظاهره من غير حاجة إلى تأويل ولا تكلف؛ فإن كثيرا من المفسرين فسروا الحسنة بكلمة التوحيد والجزاء عليها بالجنة، ثم استشكلوا تفضيل الجنة على التوحيد، وبما ذكرناه يزول الإشكال.

ويتبين أن التوحيد الذي في الجنة أكمل من التوحيد الذي في الدنيا، وهو جزاء له، وكذلك المعرفة والمحبة والشوق أيضا...»[1]. انتهى.

١- «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (١/ ٢٣١-٢٣٣) ضمن «الرسائل» باختصار.

ومن لطيف ما روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «ما يمنع أحدكم يكون جالسا، أن يقول للملك الذي يكتب، اكتب يرحمك الله»، ثم يُسبح، ويذكرُ الله، فيغتنم الأوقات بأفضل الطاعات.

فإذا كنت خاليا، فلتصرف الوقت في ذكر الله، فإن الذكر غَرس الجنة.

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة، أفاض في ذكرها والتدليل عليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه «**الوابل الصَيِّب من الكَلِمِ الطَيِّب**»[١]، حتى ذكر منها نحوا من ثمانين فائدة، فليُراجَع فإنه مفيد جدا، ولا يستغني عنه مسلم، بَلْهَ طلاب العلم...

وللناظم العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منظومة لطيفة بعنوان: «**منهج الحق في العقائد والأخلاق**»[٢] ضمَّنَها أبياتا في فضائل ذكر الله تعالى. وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأبيات في شرحه لهذه المنظومة، فقال[٣]: **و لي من الأبيات:**

وَكُـــنْ ذَاكِـــرًا للهِ في كُلِّ حَالَـــةٍ ... فَلَـيْسَ لِذِكْـرِ اللهِ وَقْـتٌ مُقَيَّـدُ
فَـذِكْرُ إِلَـهِ العَرْشِ سِرًّا وَمُعْـلَنًا ... يُــزَيْلُ الشَّقَا والهَمَّ عَنْكَ وَيَــطْرُدُ
وَيَــجْلِــبُ لِلخَيْرَاتِ دُنْيًا وَآجِلاً ... وإِنْ يَــأْتِكَ الوَسْوَاسُ يومًا يُشَرِّدُ

١- (ص ٤١-٩٤).

٢- وهي قصيدة دالية، شرحها الشيخ عبد الرزاق العباد البدر -وفقه الله-.

٣- انظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٨-٢٠).

فَـقَدْ أَخبرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَـــحبِهِ بِـــأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْـــرَدُ
ووَصّــــَى مُـــعَاذًا يَسْتَعِيْنُ إِلهَـــهُ عَـلَى ذِكرِهِ وَالشُّكرِ بالحُسْنِ يَعْبُدُ
وأَوْصَى لِشَخْصٍ قد أَتَى لِنَصِيْحَةٍ وقَـد كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَـدُ
بـــأنْ لا يَــزَلُ رَطْبًا لِسَانُك هَذه تُـعِيْنُ عَلى كُلِّ الأُمُورِ وَتُسْعِـــدُ
وَأَخْـــبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لأَهْلِـــهِ بِجَـنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمَهَّـــدُ
وَأَخْــــبَرَ أَنَّ الذِّكرِ يَبْقَى بِجَنَّــــةٍ ويَنْقَـطِعُ التَّكْلِيْفُ حِـيَنْ يُخَلَّـــدُ
وَلَـــوْ لَمْ يَكُن فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّـــهُ طَـرِيْقٌ إِلى حُبِّ الإِلهِ وَمُرْشِـــدُ
ويَـــنْهَى الفَتَى عَنْ غِيْبَةٍ وَنَمِيْمَةٍ وعَـــنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُـــفْسِـــدُ
لَــــكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيْمٌ وَرَغْبَـــةٌ بِـــكَثْرَةِ ذِكْـــرِ اللهِ نِـــعْمَ الْمُوَحَّـــدُ
ولَـــكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْــــرُنَا كَـــمَا قَـــلَّ مِنَّـــا لِلإِلهِ التَّـــعَـبُّـــدُ

وهذه الأبيات واضحة المعاني، ولله الحمد.

ومما نبَّه عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في هذه الأبيات**: أنه لو لم يكن في الذكر إلاَّ أنه يقربك إلى الله، وينهاك عن الاشتغال بغير ذلك من الغيبة والنميمة، لكان فيه الخير العظيم.

ولن تُرغم شيطانَك بمثل إرغامه بذكر الله جل وعلا، خاصة في الخلوات. فإن كثرة الاختلاء بالنفس إذا لم يَصحَبها ذكر الله، حارت وحادت بك إلى الوَساوِسِ، لأن العبد إذا خلا بنفسه خلا به الشيطان، فإن لم تعمر

وقتك بالطاعة، شَغَلَكَ هو بالوَساوِس التي تَضُرُّ بدينك ودنياك، والنفسُ إن لم تشغلها شَغَلَتك.

والواقع أوضح شاهد على ما ذكرنا. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فعل الطاعة وترك المعصية

بعد أن ذكر منزلة الذكر، **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَتــــقَـــرَّبُـــونَ إِلَى المَلِيْكِ بِفِعْلِهِمْ طاعـــاتِـهِ وَالتَّـــرْكِ للعِـصْيَـــانِ

فهم في سيرهم يتقرَّبون إلى الله مَلِيكِهم[1] بأمرين:

- بفعل الطاعة،
- وترك المعصية.

وهما ملاك الأمر، فالتقوى كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى[2]: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن **تقوى الله: تركُ ما حرَّمَ الله، وأداءُ ما افترض الله**، فَمن رُزِقَ بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير».

وقال الحسن: «**المتقون: اتقوا ما حرَّم الله عليهم، وأدَّوْا ما افترضَ الله عليهم**».

١- فالله مالِك مَلِك مَلِيك، له الـمُلك كلُّه سبحانه.

٢- «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٤٧).

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الذكرُ طاعةُ الله، فمن أطاعَ اللهَ فقد ذَكَرَه، ومن لم يُطعه فليس بذاكر، وإن أكثرَ التَّسبيحَ وتلاوةَ القُرآن**».(١)

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، أي: الطاعة والذل والخضوع له دائمًا سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، كما قال جماعة من السلف.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «**فأفضل ما استُجلِبَت به محبَّة الله** عَزَّ وَجَلَّ **فِعلُ الواجبات وتركُ المُحَرَّمات**». انتهى.

١- «صفة الصَّفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٤٥). وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٦٧٥) عند شرح آخر حديث من البخاري، وفيه أن ابنَ بطال قال: «هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين، والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، **فلا تظن أن من أدمن الذكر وأصر على ما شاءه من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين**، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح». انتهى.

وقال -عزَّ مِن قائلٍ-: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[النساء: ١٢٣ -١٢٥].

فمن كان مقتصراً على الفرائض، ولكنه مُراعٍ لحدود الله -جل وعلا-، خيرٌ من الذي يُكثر من النوافل ولكنه يُصرُّ على المعاصي. فالعبد لن يسير إلى الله جل وعلا بمثل فعل الطاعة وترك المعصية، لأنهما ملاك الأمر.

=

١ - «مجموع الرسائل» (١/ ١٥٣).

لا وَلاية ولا كَرامة إلا بلزوم طريق الاستقامة

فرأس الفلاح هو امتثال الأمر وترك النهي. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧ – ٧٨].

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِي قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلاً لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بعدك. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُلْ آمَنْتُ بالله، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «**والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم**، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمل ذلك فعل الطَّاعات كلِّها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلِّها كذلك». انتهى.

١- رواه مسلم بلفظ «قُلْ: آمَنْتُ بالله، فاسْتَقِمْ» رقم (٣٨).

٢- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٣٢٤).

وكأنَّ الشيخَ ابنَ سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى يُشير إلى أنَّ مَن لم يستقم على شرع الله** -جل وعلا- **ليس وليًّا لله، وليس سائرا إلى الله** -جل وعلا- **السيرَ الذي يبلِّغُهُ المقصد.**

فإنَّ مِن غُلاة الصوفية من قال: (إذا بلغتَ درجةَ اليقين، سقطَتْ عنك التكاليف). فأراد الشيخ بهذا البيت أن يبيِّن أنَّ السائر إلى الله لا ينقطع عن فعل الطاعة وترك المعصية إلى أن يموت.

فمَن ظنَّ أنَّه يصل إلى الله -جل وعلا- **بغير هذا الطريق، فإنَّه كافر،** لأنَّه خالَف الكتاب والسنة، بل أنكر الكتاب والسنة اللَّذين يحُثَّان على فعل الطاعة وترك المعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**مَن اعْتَقَدَ أنَّ لأَحَدٍ مِن الأوْلِيَاءِ طَرِيقًا إلى الله مِن غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ**». انتهى.

ولذلك ذكر العلماء أنَّ مَن ظنَّ أنَّه تسقُط عنه التكاليفُ يومًا مِن الأيام أنَّه كافِرٌ بالاتفاق، وهو زنديق من الزنادقة.

وهذا الأمر وقَع مِن بعض المتصوِّفة، عِياذًا بالله تعالى من هذا الكفر.

١- «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص ٢٠).

ويستدل بهذه الآية الكريمة -وهي قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]- على أنَّ العبادة كالصلاة ونحوها واجبةٌ على الإنسان ما دام عقلُه ثابتًا فيصلِّي بحسب حاله.

ويستدل بها أيضًا على تخطئة مَن ذهب مِن الملاحدة إلى أنَّ المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدُهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل.

قال محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**إنَّ تفسير الآية بهذا كُفر بالله وزندقة، وخروج عن مِلَّة الإسلام بإجماع المسلمين**». انتهى

فإنَّ الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا هم وأصحابُهم أعلمَ الناس بالله وأعرفَهم بحقوقه وصفاته، وما يستحِقُّ مِن التعظيم، وكانوا مع هذا أعْبَدَ الناس وأكثرَهم عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. **وإنما المراد باليقين في الآية هو الموت.**[2]

١- «أضواء البيان» (٣/ ١٤٠).

٢- انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٥٨-٣٨٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، **وهو الموت بإجماع أهل العلم كُلِّهم**. قال الحسن: «**لم يجعل اللهُ لعبادة المؤمنين أجَلًا دون الموت**»». انتهى.

قلت: **وقد عدَّ العلماءُ** -رحمهم الله- **مِن نواقضِ الإسلام، وقَواطِعِ المِلَّة**: «مَن اعْتَقَدَ أنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسَعُهُ الخُرُوجُ عن شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما وَسِعَ الخَضِرَ الخُرُوجُ عن شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ»[٢].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: **فمَن ادَّعَى أنَّه مع محمد** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **كالخضر مع موسى، أو جوَّز ذلك لأحد مِن الأمة: فليُجَدِّد إسلامَه، وليتشهَّد شهادةَ الحق**. فإنَّه بذلك مفارِقٌ لدين الإسلام بالكُلية[٤]، فضلًا عن أنْ يكونَ مِن خاصَّةِ أولياءِ الله، **وإنَّما هو مِن أولياء الشيطان وخلفائه ونوَّابه**». انتهى.

ونقل القاضي عياض المالكي الإجماعَ على كُفر مَن اعتقد ذلك، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «وكذلك أجمع المسلمون على تكفير مَن قال مِن بعض المتصوِّفة:

١- «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٨).

٢- انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٣٦٢).

٣-«مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

٤- انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٨-٢٤٩).

٥-«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ٤٧٩) بتصرف يسير.

(إنَّ العبادةَ وطولَ المجاهدة إذا صَفَت نفوسُهم أفضَت بهم إلى إسقاطها وإباحة كُلِّ شيء لهم، ورُفِع عَهدُ الشرائع عنهم)». انتهى.

المداومة على النوافل بعد الفرائض

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تفصيل هذا، فقال:

فِـعْــلُ الفَرَائِضِ وَالنَّوافِلِ دَأْبُـهُم   مَع رُؤْيَةِ التَّـقْصِيرِ والنُّـقْـصَــانِ

فالطاعة عندهم إما فرض أو نفل.

والفرض: ما أمر به الشارع على وجه الإلزام.

والنفل: ما أمر به الشارع لا على وجه الإلزام.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولا يتقرب وليُّ الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله». انتهى.

وقال العلامة ابن سعدي في مختصر له في «أصول العقائد الدينية»[2]، حاكيًا طريقة أهل السنة في العمل: «**وأمَّا طريقُهم في العمل فإنَّهم يتقرَّبون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام بعقائد الإيمان التي هي أصلُ العبادات وأساسُها، ثم يتقرَّبون له بأداء فرائض الله المتعلِّقة بحقِّه وحُقوق عبادِه، مع الإكثار مِن النوافل، وبترك المحرمات والمنهيات تعبُّدًا لله تعالى**». انتهى.

١- انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٨-٢٤٩).

٢- وقد منَّ الله علي، وشرحت هذا المختصر المفيد، بشرح سَمَّيتُهُ: «التَّعليقات السَّنيَّة والفوائد البهيَّة شرح مختصر في أصول العقائد الدينية».

والنفل مهمٌّ، ولكنه دون الفرض، لأن الفرض يستحقُّ صاحبه العقاب عند الترك، أما النفل فإن صاحبه ليس معرَّضًا للوعيد عند الترك.

وههنا أمر مهم نبَّه عليه الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى(١)، وهو أنَّ: «**المندوب لا يُعاقب على تركه مِن جهة الجُزء، أمَّا مِن حيث الكُلِّ فإنَّه يأخذُ حُكمَ الواجب، فالإخلال به مطلَقًا كالإخلال بالواجب**». انتهى.

وجمهور الأصوليين على أنَّ المندوبَ مأمورٌ به، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، معلِّقًا على حديث الأعرابي الذي سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن الفرائض: «في هذا الحديث دلالة على جواز ترك التطوعات، **لكنَّ مَن داوم على ترك السُّنَن كان نقصًا في دينه، فإنْ كان ترَكَها تهاوُنًا بها ورغبةً عنها كان ذلك فِسقًا،** يعني لورود الوعيد عليه حيث قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**مَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فلَيسَ مِنِّي**».

وقد كان صدْرُ الصحابة ومَن تَبِعَهُم يواظبون على السُّنَن مواظبتَهم على الفرائض، ولا يفرِّقون بينهما في اغتنام ثوابها.

١- الموافقات (١/ ١١٥، ٢/ ٣٣٧).

٢- نقلا عن «فتح الباري» (٣/ ٣٣٦). وكلامه في «المفهم» (١/ ١٦٦).

وإنّما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها ووجوب العقاب على الترك ونفيه، ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام، فاكتفي منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال لئلا يثقل ذلك عليهم فيمَلُّوا، حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهلت عليهم». انتهى.

قلت: وهو كلام نفيس جدا، فرحمه الله رحمة واسعة.

وقال بعض أهل العلم[1]: «**فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء**، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل، **والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفًا من العقوبة ومؤدِّي النفل لا يفعله إلَّا إيثارًا للخدمة** فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته». انتهى.

قال ابن القيم[2]: «**الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح**». انتهى.

١- انظر: «فتح الباري» (١١/ ٤١٧)، ولا أدري: هل هو من كلام الحافظ ابن حجر أم من كلام الطوفي، ورحم الله الجميع.

٢- «الفوائد» (ص ٩٨).

وهذا الذي ذكره الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر النوافل بعد الفرائض، هو مصداق الحديث الإلـٰهي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، ومَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**».[1]

ونبَّهَ الإمام ابن القيم على نكتة بديعة في قوله: «**بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش**»، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وتأمَّل كيف قال: «**بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش**» ولم يقل: «فلي يسمع ولي يبصر ولي يبطش»، وربما يظنُّ الظّانُّ أنَّ اللاَّم أولى بهذا الموضع إذ هي أدلُّ على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخصُّ من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط، إذ ليست الباء هاهنا لمجرَّد الاستعانة، **فإنَّ حركاتِ الأبرار والفجَّار وإدراكاتِهم إنَّما هي بمعونة الله لهم، وأنَّ الباء هاهنا للمصاحبة: إنَّما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه** ومعه، كقوله في الحديث الآخر: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه**».

١- رواه البخاري (٦١٣٧).

٢- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص ١٨٨)، ويسمَّى أيضا «الداء والدواء».

وهذه المعيَّة هي المعيَّة الخاصَّة المذكورة في قوله تعالي: ﴿لَا تَحۡـزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما**»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]... **فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعيَّـة دون اللاّم، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصّبر والتّوكل ونزوله في منازل العبوديّة إلّا بهذه الباء وهذه المعيَّـة.**

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمانا، فبالله يهون كلُّ صَعْب، ويسهُل كُلُّ عسير، ويقرُب كلُّ بعيد، وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم، فلا هَمَّ مع الله، ولا غَمَّ مع الله، ولا حُزْنَ مع الله، وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحُوت إذا فارق الماء، يثِبُ وينقلب حتَّى يعودَ إليه». انتهى.

قال بعضهم: المحب لله طائر القلب كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل، دأبا وشوقا. وأنشد بعضهم:

وكُـــنْ لِربِّكَ ذَا حُبٍّ لِتَخْـدمَهُ إنَّ الُمـحبِّين للأَحْباب خُـــدَّامُ

ومِن أعظم ما يَتَقَرَّبُ به العبدُ إلى الله تعالى من النوافل كثرةُ تلاوة القرآن، وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

قال خبَّاب بن الأرَتِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لرجل: تقرَّب إلى الله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرَّبَ إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.[1]

وقال السَّرِي السَّقَطِي رَحِمَهُٱللَّهُ: «انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بالله بأربع خصال. **فأمَّا مَن انقطع عن الله فإنَّه يتخطَّى إلى نافلة بتضييع فَرْض**، والثاني: عمل بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدق القلوب، وأما الذي اتصل به المتَّصلون فبلزوم الباب، والتشمير في الخدمة، والصبر على المكاره، وصيانات الكرامات».[2]

يقول ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «المراد من التقرب بالنوافل أنْ تقع ممن أدى الفرائض لا مَن أخَلَّ بها، كما قال بعض الأكابر: **مَن شَغَلَه الفرضُ عن النفل فهو معذور، ومَن شَغَلَه النفلُ عن الفرض فهو مغرور**». انتهى.

والانشغال بالنفل عن الفرض مِن تلبيس إبليس، قال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ[4]: «وقد لبَّس إبليسُ على جماعة مِن المتعبِّدين فأكثروا مِن صلاة الليل

١- «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٦٠).

٢- «صفة الصفوة» (١/ ٤٩٩).

٣- «فتح الباري» (١١/ ٤١٧).

٤- «تلبيس إبليس» (ص ١٢٧).

وفيهم مَن يَسهرُه كلَّه، **ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر ممَّا يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع**[1] **قُبيل الفجر فتفوته الفريضة**». انتهى.

---

١ - أي: ينام.

الحذَر من العُجب وأسبابه

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[مَع رُؤْيةِ التَّقْصِيرِ والنُّقْصَـــانِ]

فهم مع ما منَّ الله به عليهم من فعل الفرائض، وتكميلها بالنوافل، لم يُصبهم العُجبُ والغُرور، بل يرونَ أنفسَهم مقصرين في حق الله تعالى.

قال المصنف في «شرحه»[١]: «**فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العُجب الذي يُبطلُ الأعمال ويُفسدُها**». انتهى.

وقد قيل: علامة رضى الله عنك، إعراضك عن نفسك. **وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قلبك**، حتى إنَّ العارِف ليستغفر الله عقيب طاعته.[٢]

قال أبو الحسن علي بن محمد المزين الصغير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المُعجَبُ بعلمه مستدرجٌ، والمستحسِن لشيء من أفعاله ممكور به**».[٣]

قيل لسعيد بن جبير: من أعبَدُ الناس؟ قال: «**رجلٌ اجترَحَ من**

١- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٢).

٢- انظر: «مدارج السّالكين» (١/ ٤٣٩).

٣- «صفة الصفوة» (١/ ٤٤٣).

الذُّنوب، فكلما ذَكَرَ ذنوبهُ احتَقرَ عَمَله» [١].

ومن وصايا بعض السلف: «**احذَر أن ترى عملَك لك، فإنْ رأيته لك كنتَ ناظرا إلى ما ليسَ لك**» [٢].

وقال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كفَى بالمَرْءِ عِلمًا أنْ يخشَى الله، وكفى بالمَرْءِ جهلًا أنْ يُعجَبَ بعمله**» [٣].

ومَن أُعجِبَ بنفسه يوشِكُ أنْ يبوح بذلك، فيُسمِّع الخلقَ ويرائيهم، ويتصنَّع لهم ويرضيهم، طلبًا للثناء والمَدح، وزهدًا في الثواب والربح.

فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خَرَجَ علينا رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ المسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ المسِيحِ الدَّجَّالِ**». قال: قُلْنَا: بَلَى، فقال: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**» [٤].

١- «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٩).

٢- «صفة الصفوة» (١/ ٥٥٠).

٣- «حلية الأولياء» (٢/ ٩٥).

٤- رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٠٧).

يقول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والدَّجَّال ممكن أن يعرف بعلامات، لكن الشِّرك الخفيَّ أشدُّ منه، لأَنَّه يكون في القلوب، ولا يطَّلع عليه النَّاس، لكن قد يُعرف بعلامات تظهر على صاحبه». انتهى.

ويقول العلامة سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنما كان الرياء كذلك لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه». انتهى.

وفي هذا يقول العلامة المعلِّمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المؤمن وإن خلُصَت نيَّتُه في نفس الأمر، لا يستطيع أنْ يستَيقِنَ ذلك مِن نفسه». انتهى.

وللإعجاب أسباب بيَّنها الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] بقوله: «فمِن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا، والتملُّق خديعة ومَلعَبا، فإذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم...

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «المدحُ ذبحٌ».

١- «شرح كتاب التّوحيد» (ص ١١٩).

٢- «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٥٩).

٣- «القائد إلى تصحيح العقائد» (ص ٣٣).

٤- «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٧٨-٣٨٢) باختصار.

فإنَّ للنفس ميلًا إلى حُبِّ الثناء، وسماع المدح، وقد قال الشاعر:

يَــهْوَى الثَّـــنَـاءَ مُـبرِّزٌ ومُـقَـصِّرُ   حُـبُّ الثَّـــنَاءِ طَبِيعَةُ الإِنْـسَانِ

فقلَّ مَدحٌ كان جميعُه صِدقًا، وقَلَّ ثناءٌ كان كُلُّه حقًّا، ولذلك كرِهَ أهلُ الفضل أنْ يطلِقُوا ألسنتَهم بالثناء والمَدْح تحرُّزًا مِن التجاوُز فيه، وتنزيهًا عن التملُّق به.

وربَّما آلَ حُبُّ المَدْح بصاحبه إلى أنْ يصيرَ مادِحَ نفسِه، إمَّا لتوهُّمه أنَّ الناس قد غفلوا عن فضله، وأخلُّوا بحقه، وإما ليخدَعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء، فيعتقدون أنَّ قولَه حقٌّ متبَّع، وصِدقٌ مستمَع... وقد قال بعض الشعراء:

وَمَــا شَـرَفٌ أَنْ يَمْـدَحَ الْمَرْءُ نَـفْسَـهُ   وَلَـكِـنَّ أَعْـمَــالًا تَذُمُّ وَتَـمْـدَحُ

وينبغي للعاقل أن يسترشِد إخوانَ الصدق الذين هم أصفياءُ القلوب، ومَرائي المحاسن والعيوب، على ما يُنبهونه عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها. فإنهم أمكن نظرا، وأسلم فكرا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساوئه عوضا عن تصديق المدح فيه ...». انتهى.

جواز مدح النفس عند الحاجة

وأما مَن قَوِيَ وتَمَّ إخلاصُه، وصَغُر الناسُ في عينِه، واستوى عنده مَدحُهم وذمُّهم، فلا بأس بإظهار محاسِنه للناس، لأن الترغيب في الخير خير، وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: «لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت».[1]

وفي «الآداب الشّرعية»[2] لابن مفلح الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد عظيمة في هذا تحت عنوان: «**فصل في تزكية النفس المذمومة، ومدحها بالحق للمصلحة أو شكر النعمة**».

قال القاضي أبو يعلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصّة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يعني بقوله ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]: «**فيها دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور**». انتهى.

١- انظر: «مختصر مناهج القاصدين» لابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٨٦ وما بعدها).

٢- (٤/ ١١٦).

ولَمَّا حضرت أبا بكر بن عياش الوفاةُ بكَت أختُه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا تبكي وأشار إلى زاوية في البيت فقد ختم أخوك في تلك الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة**».(١)

وفي ترجمة أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «سلوني، **فو الله لئن فقدتموني لتفقدنَّ رجلًا عظيمًا مِن أمَّة محمَّد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».(٢)

قلت: والكلام في هذا كثير قديمًا وحديثًا، وهو على خلاف الأصل، ولا يصلح لكُلِّ الخَلق، بل هو لأهل الصِّدق والإخلاص، مع رُجحان مصلحةِ المدح في تلك المواطن. والله الموفِّق وحده.

١- «حلية الأولياء» (٨/ ٣٠٤).

٢- «السير» (٢/ ٣٤٢).

منزلة الصَّبر

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا بيتًا في منزلة الصبر، وكأنَّه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أراد أن يبيِّنَ أنَّ هذه المنازِلَ التي مرَّت، **مِن فِعل الطاعة، وترك المعصية، وفعلِ الفرض ثمَّ النَّفل، لا تكون إلَّا بالصبر**، ومن ظَنَّ أنَّه يسير ولا يتعَب ولا ينصَب، فإنَّما يطلُب المُحال، فإنَّ هذه الدارَ دارُ تعَب ونَصَب، وإنَّما الدارُ الآخرة هي دار الراحة والهناء.

ولهذا لما بشَّر جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خديجةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بالجنَّة، قال للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأ عليها السَّلامَ مِن رَبِّهَا ومِنِّي، وبَشِّرْهَا ببَيتٍ في الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ**».(١)

أي: أنَّ دارَ العبد في الجنَّة لا مشقَّة فيها ولا تَعَب.

ولَمَّا سُئِل الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متى يجد العبد طعم الراحة؟

قال: «**عند أوَّل قدَمٍ يضَعُها في الجنَّة**».(٢)

وصدَق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **فإنَّ الراحةَ الحقيقيَّة لا تُنالُ إلَّا في دار الراحة، وليست الدنيا محَلًّا لذلك.**

١- رواه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (٢٤٣٢).

٢- «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٩٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أجمَعَ عُقَلاءُ كلِّ أُمَّةٍ على أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعيم، وأنَّ مَن رافَق الراحةَ فارَق الراحةَ، **وحصَل على المشقَّة وقتَ الراحة في دار الراحة...**». انتهى.

مَن فاتَهُ الزَّرعُ في وقت البِذارِ فَمَا ... تَـــراهُ يَـحـصِدُ إلاَّ الـهَـمَّ والـنَّـدَمَا

فمَن أراد الراحة هناك، فينبغي له أن يتعَب هنا، والجزاء مِن جنس العمل.

فـاتعَبْ لِيَومِ مَعَـادِكَ الأَدْنَـى تَـجِدْ ... رَاحَـاتِـهِ يَـومَ المَـعَـادِ الثَّـانِـي

وفي «البخاري»[٢] قولُه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كُنْ في الدُّنْيَا كأنَّك غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيل**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «النَّاسُ منذ خُلِقُوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حَطٌّ عن رحالهم إلَّا في الجنَّة أو النار، **والعاقلُ يعلَمُ أنَّ السَّفَرَ مبنيٌّ على المشقَّة ورُكوبِ الأخطار**، ومَن المُحال عادةً أن يُطلَبَ فيه نَعيمٌ ولذَّةٌ وراحَةٌ، إنَّما ذلك بعد انتهاء السفر». انتهى.

١- «مدارج السالكين» (١/ ٥١٨).

٢- (٦٤١٦).

٣- «الفوائد» (ص ٢٢٩)، وانظر: «طريق الهجرتين» (ص ١٨٩-١٩١)، فله كلام رائع في السفر إلى الله.

قلت: ولهذا، يجوز للمسافِرِ الذي لم يَجمَع الإقامة أن يَترخَّص برُخَص السَّفَر مِن قَصْرٍ وفِطْرٍ وغيرِ ذلك مِن الأحكام، لأنَّه لا يتنَعَّم على وجه التَّمام ما لم يستَقِر.

وهذه حال الدنيا، فإنَّها دار مَمَر لا دار مَقَر، تُراد لتُعبَر ولا تُراد لتُعمَر، وفي «قصيدة أبي إسحاق الإلبيري»:

ولم تُخلَق لتَعمُرَها ولكنْ   لتَعبُرَها فَجُدَّ لمَا خُلِقْتَا

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فكُلُّ ساعةٍ قابلة لأنْ تضَعَ فيها حَجَرًا يزدادُ به صَرْحُ مَجْدِك ارتفاعًا، ويقطعُ به قومُك في السعادة باعًا أو ذِراعًا، فإنْ كنتَ حريصًا على أنْ يكونَ لك المَجْدُ الأسْمَى، ولقومِك السعادةُ العُظمى، فدَعِ الراحةَ جانبًا، واجعَلْ بينك وبين اللَّهوِ حاجِبًا». انتهى.

وما أجمل قولَ أبي يَعلى الموصلي المحدِّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[٢]

إنِّي رأيتُ وفي الأيَّام تَجرِبةٌ   للصَّبْرِ عَاقِبةً محمودةَ الأثَرِ
وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أَمْرٍ تَطَلَّبَهُ   واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلَّا فَازَ بالظَّفَرِ

وفي القرآن: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وبُشراهم: ﴿صَلَوَٰتٌ

١- «رسائل الإصلاح» (١/ ٨٤).

٢- «روضة العقلاء» (ص ٢٩١).

مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧].

ومن الإحسان المترتب على الصبر دخولُ الجنة، كما في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[الفرقان: ٧٥]، أي: بما تحمَّلوا من الصَّبر في الوصول إلى مرضاة الله"[1]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤].

١- «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٤٧٤).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكارِهِ كُلِّهَا شَوْقاً إلى مَا فِيْهِ مِنْ إِحْسَانِ

والصبر: هو الحَبْسُ، لغةً.

وفي الشرع: **حَبْسُ النَّفْس على حُكم الله.**

وحكمُ الله نوعان: شرعيٌّ، وقدَرِيٌّ.

والحُكمُ الشرعيُّ أمران: فعل طاعة، وترك معصية.

فيكون الصبرُ على الحُكم الشرعيِّ بحَبْس النَّفْسِ على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحُكم القدَريُّ: فالصبرُ عليه يكون بحَبْس النَّفْسِ عن الجَزَع، واللِّسان عن التَشكِّي، والجوارح عن لَطْمِ الخُدود وشَقِّ الجُيوب.[1]

قال ابن القيم[2]: «**فمَدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام بها العبدُ كما ينبغي انقلبَت المِحْنَةُ في حقِّه مِنْحَةً، واستحالَت البليَّةُ عَطِيَّةً، وصار المكروهُ محبوبًا.**

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يبتلِه ليُهلِكَه، وإنَّما ابتلاه ليَمتَحِنَ صبرَه

١- انظر تعليق شيخنا العصيمي على هذه المنظومة (ص ٧).

وراجع لهذا «القول المفيد» لابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٣٦).

٢- «الوابل الصيب» (ص ٣).

وعُبوديَّتَه، فإنَّ لله تعالى على العبدِ عُبوديَّةً في الضَّراء، كما له عُبوديَّةٌ في السَّراء، **وله عُبوديَّةٌ عليه فيما يَكْرَه، كما له عُبوديَّةٌ فيما يُحِب**. وأكثرُ الخَلق يُعطُون العُبوديَّةَ فيما يُحِبُّون، **والشَّأْنُ في إعطاء العُبوديَّةِ في المَكارِه، ففيه تفاوُتُ مراتبِ العِباد**، وبحسَبِه كانت منازِلُهم عند الله تعالى». انتهى.

قال الحسن البصري: «**كانوا يتساوَوْن في وقت النِّعَم، فإذا نزَل البلاءُ تبايَنُوا**».[1]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثَرُه عند قُوَّة البَلاء». انتهى.

وفي الحديث قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا ولا أوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**».[3]

قال بعضُ السلف: «**جعل اللهُ رأسَ أمور العباد العقل، ودليلَهم العلم، وسائقَهم العمل، ومقوِّيهم على ذلك الصبر**».[4]

فلا ينهَضُ بامتثال المأمورات وترْك المنهيات إلاَّ من صَبَر، **والصبر**

١- انظر: «اليقين» لابن أبي الدنيا (رقم ١٣).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٢٠٠).

٣- رواه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (١٠٥٣).

٤- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٣٨).

خُلُق من الأخلاق التي تَترَبَّى وتَنْمو بالمِران والدَّوام، فواجبٌ على المكلَّف أن يجعلَ تَربيةَ نفسِه عليه وتَعويدَها به مِن أكبرِ همِّه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشَّرعية إلَّا به، **بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدار الدُّنيا الموضوعةِ على المِحنَة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.**[١]

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«وَجَدنَا خيرَ عَيشِنَا الصَّبرَ».**[٢]

وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خيرَ في جسد لا رأسَ له».**[٣]

وسبب ذلك -كما قال بعض أهل العلم[٤]- راجع إلى أنَّ الصبرَ يدخُلُ في كلِّ باب، بل في كلِّ مسألة مِن مسائل الدين.

١- «آثار ابن باديس» (١/ ٥٠٠).

٢- انظر «الصبر والثواب عليه» لابن أبي الدنيا (٤٨).

٣- رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥)، وابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٨).

وانظر: «**تسلية المؤمنين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين**» للمؤلف، ففيها مزيد بيان لفوائد الصبر وثواب أهله في الدنيا والآخرة.

٤- انظر: «عدة الصابرين» (ص ١١١).

والصبر واجب بالاتفاق[1]، ويحتاج مجاهدة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فاصبر في نفسِك، ولازِم الصبرَ، وداوِم عليه، وغالِب غيرَك في الصبر، تكُن مِن المفلِحين.

ولا تظننَّ أنَّ هذه المنازلَ التي سيذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إنَّما يصل إليها العبدُ بسهولة. ولا تظننَّ أنَّك إذا وصَلت إليها أو إلى بعضِها تثبُت عليها بسهولة. الثبات عزيز!!

إن الثَّــباتَ فــي الرِّجــال عَــزَّا ويَــغنمُ الرِّجــالُ منـــه العِـــزَّا

والعبد إذا لم يستعن بالله -جل وعلا- فإنَّه لا محالَةَ هالِك، لأنَّه لا غِنَى له عن الله تعالى طَرفة عين. وفقر العبدِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ يجب أن يستظهِرَه المرءُ دائمًا، ويستظهِرَ ضعفَه واستكانتَه إلى مولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَــقْرُ القُـلُوبِ إِلَـى الإِلَـهِ ضَـرُورَةٌ يَـا وَيْــلَ قَلْـبٍ بَـاءَ بِـالحِـرْمَـانِ[2]

١- «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص ٩٩).

٢- من مطلع «منظومة المعاني الحسان في نصح أهل الإيمان» لشيخنا صالح العصيمي -وفقه الله-.

وقد شرحتها في رسالة بعنوان: **«مرابِع الإحسان شرح المعاني الحسان»**.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧ – ٨٨]، أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيَّما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء... قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما أجمل قولَ شيخِ الإسلام ابن تيمية في أبيات بعث بها في آخر عمره إلى تلميذه ابن القيم رحمة الله عليهما:[1]

أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّــــاتِ ... أنا المُسَيْكِينُ في مَجْموعِ حالاتي
أنا الظّلومُ لنَفْسي وهِيَ ظالِمَتي ... والخَيْرُ إنْ يَأتِنا مِنْ عِنْدِهِ ياتي
لا أسْتطيعُ لِنَفْسي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... ولا عَنِ النّفْسِ لي دَفْعَ المَضَرّاتِ
ولَيْسَ لي دونَهُ مَوْلىً يُدَبّرُني ... ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطيئاتي
إلا بإذْنٍ مِنَ الرّحْمنِ خالِقِنا ... إلى الشّفيعِ كَما قَدْ جا في الآياتِ
ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دونَهُ أبَداً ... ولا شَريكٌ أنا في بَعْضِ ذَرّاتِ
ولا ظَهيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعينَ بِهِ ... كَما يَكونُ لأرْبابِ الوَلاياتِ

١- انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢). وقد يسَّر الله لي شرحَ هذه القصيدة في دروس مسجَّلة، وألَّفتُ عليها شرحًا سمَّيتُه: «**شذا العبير بشرح قصيدة ابن تيمية: أنا الفقير**».

والـفَقْرُ لي وَصْـفُ ذاتٍ لازمٌ أبَداً   كما الغِنَى أبَداً وَصْفٌ لَـــــــهُ ذاتي
وهـذِهِ الْحـالُ حالُ الخَلْقِ أجْمَعِهِم   وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَـبْدٌ لَـــــــــهُ آتــي
فَـمَنْ بَـغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خـالِقِهِ   فَهُوَ الجَهولُ الظّلومُ المُشْـرِكُ الْعـاتي
والحَــمْدُ لله مِـلْءَ الْكَوْنِ أجْمَعِـهِ   ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَـــاتي

فلا شيءَ أنفعُ للصادِق مِن التحقُّق بالمَسكَنة والفاقَة والذُّل، وأنَّه لا شيء، وأنَّه ممَّن لم يصِحَّ له بعدُ الإسلامُ حتَّى يدَّعِيَ الشرفَ فيه.[1]

١- «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢).

والحاصل أنَّ الصبرَ صعبٌ، لكنَّ عواقبَه حسنةٌ، فإذا تأمَّلتَ العواقِبَ الحسَنَة، هانَت عليك مصاعِبُ الطريق.

والصَّبرُ مِثْلُ اسمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

مُرٌّ من حيث صعوبة الطريق، لكنه حُلوٌ من حيث النتيجة التي تنتظر العبد بسببه.

نكتة حول حديث: «والصَّبْرُ ضِيَاءٌ»

قال ابن رجب عند شرح حديث: «**والصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»[١]: «وأما الصبر فإنَّه ضياء، **والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق** كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥]...

ولما كان الصبر شاقًّا على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء». انتهى.

قال السري السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَن عَرَفَ ما يطلُب، هانَ عليه ما يَبذُل**»[٢].

فمن سار في طريق العبودية إلى لقاء الحبيب، فلا بد من مواصلة السير حتى يصل، فإنْ وقَف في الطريق أو رجع هلَك، **فإن اشتدَّ عليه ألمُ السَّير، فليَذكُر راحةَ الوصول وقد زال التعب**.[٣]

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «**مَن تأمَّل حلاوةَ العاقبة هانت عليه مرارةُ**

١- «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٥).

٢- «صفة الصفوة» (١/ ٤٩٩).

٣- انظر: «رسائل ابن رجب» (١/ ٣٧١).

٤- «الفوائد» (ص ٦٣).

الصبر».

وقال[١]: «**مَن لاحَ له حالُ الآخرة، هانَ عليه فِراقُ الدنيا**». انتهى.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**التَّائِقُ للعافية لا يُبالي بمَرارَةِ الدواء**». انتهى.

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**مَن كَرُمت عليه نفسُه، هانَ عليه كلُّ ما يَبذُل في افتكاكها مِن النار**». انتهى.

ولذلك كُلَّما حدَّثَتْكَ نفسُك بالضَّجَرِ والقَلَقِ، حَدِّثْهَا أنتَ بِما يَنْتظِرُهَا من الخيرِ العظيم عند الله -جل وعلا-، حتَّى كان الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، قبل الغزوات، يتذاكَرون الجنَّة وما فيها مِن النعيم المقيم، لأنَّ ذلك ممَّا يَحْدُو المرءَ نحوَ بَذْلِ النَّفْسِ في سبيل الله جَلَّجَلَالُهُ.

ومن بدائع ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «والله لو قال المالِك سبحانه: إنَّما خلقتكم ليُستدل على وجودي، ثم أنا أُفْنِيكُم ولا إعادةَ، لكان يجِبُ على النُّفوس العارِفةِ به أنْ تقول: سمعًا لما قلتَ وطاعةً، وأيُّ شيءٍ لنا فينا حتَّى

١- نفس المصدر (ص ٩٨).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٢٩٨).

٣- «لطائف المعارف» (ص ٣٩٥).

٤- «صيد الخاطر» (ص ٢٣٥).

نتكلم؟

فكيف وقد وعَدَ بالأجر الجزيل، والخُلود في النَّعيم، الذي لا ينفَد.

لكنَّ طريقَ الوُصولِ تحتاج إلى صبرٍ على المشقَّة...

فالصبرَ الصبرَ يا أقدام المبتدئين، لاح المنزِلُ، والسرورَ السرورَ يا متوسِّطين، ضُرِبَت الخِيَم، والفرحَ الكامل يا عارِفين، قد تُلُقِّيتُم بالبشائر». انتهى.

وفي «تائية أبي إسحاق الألبيري»:

إذا أَبــصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ   قَد اِرتَفَعوا عَــلَيكَ وقَد سَفَلـتا

فــراجِـعها وَدَع عَنكَ الهُوَينى   فــما بِالبُـطءِ تُـدرِكُ ما طَلَـبتا

وقال ابن الجوزي أيضا[١]: «**فالصبرَ الصبرَ أيها الطالب للفضائل**، فإنَّ لذَّةَ الراحة بالهوى أو بالبِطالة تَذهَبُ ويَبقَى الأَسَى». انتهى.

ونُسِبَ للإمام الشافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولُه:

يـا نَـفسُ مـا هُـوَ إلَّا صَــبرُ أيـامِ   كــأَنَّ مُـدَّتهَا أَضــغاثُ أَحــلامِ

يـا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنيا مُبَادِرَةً   وخَــلِّ عَنهَا فَإنَّ العَيشَ قُــدَّامِي

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

١- «صيد الخاطر» (ص ٢٣٥).

[العنكبوت: ٦٩].

وقال -جلَّ في علاه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

منزلة الرضا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نَـــزَلُـــوا بِمَـنْزِلَةِ الرِّضَا فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبَحُـوا فِي جُـنَّـــةٍ وأَمَـــانِ

بعد منزلة الصبر، هناك منزلة أعلى درجة وهي: منزلة الرضا.

والرِّضا: تَلقِّي أحكام الله الشرعية والقدرية بانشراح صدر وسرور نفس.[١]

فإن قيل: ما الفرق بين الرضا والصبر؟

الجواب: «قال طائفة من السلف: **إنَّ الراضي لا يتمنَّى غيرَ حاله التي هو عليها**».[٢]

١- من تعليق شيخنا صالح العصيمي على هذه المنظومة (ص ٧)، وانظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (٢/ ٨١) ضمن «مجموع رسائل ابن رجب»، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرضا يوجبُ انشراح الصدر وسعتَهُ». انتهى.

٢- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (٢/ ٨١) ضمن «مجموع الرسائل»، ونقل كلامَه الشيخ سليمان بن عبدالله في «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٥١). وانظر: «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٧).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «واعلم أنَّه **لا تَنافي بين الرِّضا وبين الإحساس بالألم**، فكثيرٌ ممَّن له أنين مِن وجع وشدَّةِ مرض، قلبُه مشحون مِن الرِّضا والتسليم لأمر الله». انتهى.

١- «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٥١).

هل الرِّضا بالمصائب واجب؟

فصَّل الناظمُ العلامةُ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة تفصيلًا حسَنًا، فقال:[١]

«اعلم أنَّ الرِّضا بالقضاء والقدر قسمان:

قسم يتعلَّق بأفعال الله، وقسم يتعلَّق بأفعال العِباد.

- **أمَّا أفعال الباري، فهي قسمان أيضا**: أحكام شرعية، وأفعال قدرية.
  - **أمَّا الرضا بأحكامه الشرعيَّة**: فهو واجب، ولا يتمُّ إيمان العبد إلَّا به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[الأحزاب: ٣٦].
  - **وأمَّا أفعاله القدريَّة**: فهي أيضا قسمان: نِعَمٌ ومصائب.
    - **أمَّا الرِّضا بالنِّعَم**: فالنفوس مجبولة عليه.
    - **وأمَّا المصائب**: فالرِّضا بها مشروع بالاتفاق.

لكن، هل يجب أو يُستحَب؟

١- انظر: «التعليقات السعدية على العقيدة السفارينية» (ص ٢٨٥-٢٨٦) -وقد شرحتها في دروس صوتية منشورة-، و«مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ٣١). وراجع للفائدة: «فهارس مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٦/ ٦٦٢).

والصواب: أنَّه مستحَب، لا واجب، وإنَّما يجب الصبر.[١]

- **وأمَّا القسم الثاني**: فهو المتعلِّق بأفعال العباد، فهو تابع لأحكامها، فالرِّضا بالواجب واجب، وبالمحرَّم محرَّم، وبالمَسنون كذلك، وبالمكروه مكروه، وهكذا». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَـــزَلُـــوا بِمَـنْزِلَةِ الرِّضَا]

فالرِّضا مِن أعظم المنازل، ومَن خشي الله -جل وعلا- وأناب إليه، وأظهر حاجته إليه، وُفِّق لتلك المنزلة العالية.

قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

فمَن خشي الله -جل وعلا- فإنَّه حَقِيقٌ بأنْ يوُفَّقَ إلى تلك المنزلة.

قال النصر آبادي[٢]: «**مَن أراد أن يبلُغَ محَلَّ الرِّضا، فليَلْزَم ما جعَل الله**

١- وهو اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم، وانظر تفصيل المسألة في: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧ وما بعدها) و(١٠/ ٣٨٣) و«فهارس الفتاوى» (٣٦/ ٦٦٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٥٢١ وما بعدها).

قال عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**الرِّضا عزيز، ولكنَّ الصبرَ مُعَوَّلُ المؤمن**».

٢- أو النصراباذي، كما في طبعة محمد رشاد سالم لكتاب «الاستقامة» (٢/ ٧٢).

رضاه فيه».

قال شيخ الإسلام معلِّقًا على هذه المقولة[١]: «هذا الكلام في غاية الحُسْن، فإنَّه مَن لزِمَ ما يرضى الله مِن امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيَّما إذا قام بواجبها ومستحَبِّها، فإنَّ الله يرضى عنه». انتهى.

١ - «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٨٣).

وكما تقدَّم: لا تظننَّ أنَّك تصِلُ إلى تلك المنازل بسهولة، فهي تحتاج منك صبرًا، ومجاهدَةً، ومرابطَةً، مع الاستعانة بالله -جل وعلا-، فمتى وصلتَ إليها فأنت في جَنَّةٍ قبل جَنَّة الآخرة.

[فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبحُوا فِي جُنَّةٍ وأَمَانِ]

فإنَّ مَن رضي بقضاء الله وقدره، فهو في **جُنَّةٍ** أي: حماية ومَنَعة مِن ضيق الصدر، وعذاب النَّفس، وسخَط الرحمن، وفي أَمَان، في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولذلك كان **الرِّضا بابَ الله الأعظم، وجَنَّة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبِّين، ونعيم العابدين، وقُرَّة عيون المشتاقين**». انتهى.

قال بعض السلف: «بالمعرفة هانت على العاملين العبادة، **وبالرِّضا عن الله** عَزَّ وَجَلَّ **في تدبيره زهدوا في الدنيا، ورضُوا منها لأنفسهم بتقديره**».[2]

ومن رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله

١- «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣). وقد اقتبس ابنُ القيم هذا من كلام السلف. انظر: «الرضا عن الله بقضائه والتسليم بقدَره» لابن أبي الدنيا (رقم ١٣).

٢- «صفة الصفوة» (١/ ٥٠٤).

جرى عليه وحبط عمله.[1]

١ - «الرضا عن الله بقضائه» (رقم ١٥).

الرِّضا والمحبَّة مِن أحوال أهلِ الجنَّة

ليس الرِّضا والمحبَّة كالرجاء والخوف، **فإنَّ الرِّضا والمحبَّة حالان مِن أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبِس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة**، بخلاف الخوف والرجاء، فإنَّهما يفارِقان أهلَ الجنَّة بحُصول ما كانوا يرجُونه، وأمْنِهم ممَّا كانوا يخافونه...[1]

ولكن هناك منزلة أعظمُ من الرِّضا، وهي **منزلة الشكر**. وهذا ما سيذكره الناظم فيما يأتي.

١- «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

منزلة الشكر

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شَــكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ   بالقَـلْبِ والأقــوالِ والأرْكَـــانِ

فالشُّكر منزلةٌ أعظمُ من الرِّضا، وهي أنْ يشكُرَ العَبْدُ ربَّه على ذلك البلاء الَّذي أصابه.

فالصَّبرُ واجب، والرِّضا مُستَحَب، والشُّكرُ مُستَحَب أيضًا مِن باب أولى.

فالشُّكر هنا هو انشراح الصَّدرِ مع الفرَح بالبلاء، وهذا لا يكون إلَّا للكُمَّلِ مِن عباد الله -جل وعلا-، ومِن رحمة الله بخَلقه أنْ لم يجعله واجبًا عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصَّبرُ واجِبٌ باتِّفاقِ العلماء، وأعْلَى مِن ذلك الرِّضَا بحُكْمِ الله -وهو مُسْتَحَبٌّ على الصَّحِيحُ-، **وأعْلَى مِن ذلك أنْ يَشْكُرَ اللهَ على الـمُصِيبةِ، لِـما يَرَى مِن إنْعَامِ اللهِ عليه بها حَيْثُ جعَلَهَا سَبَبًا لتَـكْفِيرِ خَطاياهُ ورَفْعِ دَرَجاتِهِ** ...». انتهى.

١- «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان» (ص ٩٩)، بتصرف يسير.

[شَكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ]

وقد أمر اللهُ بالشكر، فقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[النحل: ١١٤]، ونهى عن ضدِّه، فقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، وأثنى على أهله، فقال عن خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ﴾[النحل: ١٢٠ - ١٢١]، وقال عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[الإسراء: ٣].

وقَرَن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنَّه لا غرَضَ له في عذاب خلقه إنْ شكَروا وآمنوا به فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾[النساء: ١٤٧]، أي: إنْ وفَّيتُم ما خُلِقتُم له -وهو الشكر والإيمان- فما أصنعُ بعذابكم؟!

وأخبر سبحانه أنَّ الشكرَ هو الغاية مِن خلقه وأمرِه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

وقسَّم الناسَ إلى شَكور وكَفور، فأبغضُ الأشياء إليه الكفرُ وأهلُه، وأحبُّ الأشياء إليه الشكرُ وأهلُه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٣].

والشاكرون هم الذين ثبَتُوا على نعمة الإيمان، فلم ينقَلِبوا على أعقابهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

ولَمَّا عرف عدوُّ الله إبليس قدرَ مقام الشكر، وأنَّه مِن أجلِّ المقامات وأعلاها، جعل غايته أنْ يسعى في قَطع الناس عنه، فقال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٧].(١)

وكُلُّ خير وكُلُّ نِعْمَة فمِن عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

١- انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص ١١٦-١١٩)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٣-٤).

والاعتراف بتلك النِّعْمَة حقٌّ واجبٌ لله -جل وعلا-، والمخلوق مهما فَعَلَ لا يَعْدُو أنْ يكون سببًا، والفَضْلُ إنَّما هو لله أوَّلًا وآخِرًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٣]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[لقمان: ١٢].

وكان مِن دعاء النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبَادَتِكَ».[1]

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفنون»[2]: «النِّعَمُ أضيافٌ وقِراها الشُّكر، والبلايا أضيافٌ وقِراها الصَّبر، فاجتهد أنْ ترْحَلَ الأضيافُ شاكرةً حُسْنَ القِرى، شاهدةً بما تسمَع وتَرى». انتهى.

١- رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٢٢١١٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٩٦).

٢- «الآداب الشرعية» لابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٢٩١).

ثمَّ بيَّن الناظمُ محلَّ هذه العبادة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[بالقَلْبِ والأقوالِ والأرْكَـــانِ]

وأصلُ الشُّكْرِ في وَضْعِ اللِّسانِ العربي: ظُهُورُ أَثَرِ الغِذَاءِ في أَبْدانِ الحيوان ظُهُورًا بَيِّنًا. يُقالُ: شَكِرَتِ الدَّابَّةُ، تَشْكَرُ، شَكَرًا، على وَزْنِ سَمِنَتْ تَسْمَنُ سِمَنًا: إذا ظَهَرَ عليها أَثَرُ العَلَفِ. ودَابَّةٌ شَكُورٌ: إذا ظَهَرَ عليها مِن السِّمَنِ فَوْقَ ما تَأْكُلُ وتُعْطَى مِن العَلَفِ.[١]

وعليه، عُرِّف الشُّكرُ بأنَّه: «**ظُهورُ أثرِ نعمة الله على قلبِ العَبدِ شُهودًا وإقرارًا، وعلى لسانِه اعترافًا وثناءً، وعلى جوارحِه طلبًا وتركًا**».[٢]

قال الفُضَيل بنُ عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَنْ عَرَفَ نِعْمَةَ الله بقَلبه، وحَمِدَهُ بلِسَانِهِ، لم يَسْتَتِمَّ ذلك حَتَّى يَرَى الزِّيَادَةَ**، لقول الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧]».[٣]

١- «مدارج السالكين» (٢/ ٤). وانظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٢٠٨)، و«مفردات الراغب» (ص ٤٦١)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٢٣ وما بعدها).

٢- انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤)، وشرح المصنف (ص ٢٤)، وتعليق شيخنا صالح العصيمي على المنظومة (ص ٧).

٣- «الشكر» لابن أبي الدنيا (٥٦). وانظر «المواعظ لابن أبي الدنيا» (ص ٣٧-٤٢).

فالشُّكر يكون إذن:

بالقلب: اعترافًا أنَّ النِّعمة مِن عند الله -جل وعلا- وحدَه، وأنَّ المخلوق مَهْمَا عَلا لا يَعْدُو أنْ يكونَ سببًا، ولو شاء اللهُ ما جعَلَه سببًا، ولكنَّ سُنَّةَ الله تعالى الكونية اقتَضَت خَلْقَ السَّبَب والمسبَّب.

قال بعض السلف: «**مَن لم يعرِف قدرَ النِّعم سُلِبَها مِن حيث لا يعلم، ومَن هانت عليه المصائب أحرَزَ ثوابَها**».(١)

وحقيقة الشكر باللسان: بأنْ تُفصِحَ بأنَّ هذه النِّعَمَ كلَّها مِن عند الله تعالى، فلا تَنسبها لغيره، سبحانه.

وفي «كتاب التوحيد»: «باب: قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣]». «قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملَّاح حاذِقًا، ونحو ذلك ممَّا هو جارٍ على ألسنة كثيرة». انتهى.

فنِسيانُك الله تعالى في هذه المواطن دليل على عدم تعظيم المولى جَلَّجَلَالُهُ، وقادح في كمال توحيدك. فإذا اقترن مع ذلك نسبة الفعل ونسبة الإيجاد والنصرة لغير الله تعالى كان كُفرا أكبرَ كما هو مُقَرَّرٌ في شروح كتب التوحيد.

١- «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢٤).

وأمّا الشكر بالأركان: فيكون بصرفِها في ما يُرضي الله تعالى، والاستعانة بها على طاعة المُنعِم وعبادته، وإلَّا لم يكن العبدُ في عِداد الشاكرين.

وهذا لَمّا قَامَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، قِيلَ لَهُ: يَا نَبِيَّ الله، تُكَلِّفُ هَذَا وقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّرَ؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».[1]

وجُمِعَت أركانُ الشُّكر الثلاثة في قول الشاعر:

أفـادَتْكُمُ النَّـعْـماءُ مِـنِّي ثَـلاثـةً ... يَـدِي ولِـسَاني والضَّـميرَ الـمُحَـجَّبـا

وجَعَل ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **الشُّكرَ مَبنِيًّا على خمسِ قواعدَ، وهي**[2]:

«خُضُوعُ الشاكر للمَشكور، وحُبُّه له، واعترافُه بنِعْمته، وثناؤُه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكرَه». انتهى.

واعلم أنَّ توفيقَ الله لك لشُكره نعمةٌ عظيمة، ومِنَّةٌ جليلة، حُرِمَها الأشقياء، وتفضَّل اللهُ بها على السُّعَداء، **فإنَّ اللهَ سبحانه أعلمُ بالمحَلِّ الذي يصلُح لغَرْس شجرةِ النِّعمة فتُثمِر بالشُّكر، مِن المحَلِّ الذي لا يصلُح**

١- رواه البخاري (٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩).

٢- «مدارج السالكين» (٢/ ٤). وانظر فصلًا في «الذِّكر والشُّكر» في «الفوائد» (ص ١٥٨).

لغَرْسها، فلو غُرِسَت فيه لم تُثمِر، فكان غرسُها هناك ضائعًا لا يَلِيقُ بالحِكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].[1]

وعن الحسَنِ بنِ أبي الحسَن أنَّه قال في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [العاديات: ٦]، أي: يُعَدِّدُ الـمَصَائِبَ، ويَنسَى النِّعَمَ.[2]

١- انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٣٣٧).

٢- «الشكر» لابن أبي الدنيا (٦٢).

منزلة التوكل

لَمَّا كانت هذه المنازِلُ التي مرَّ بيانُها لا تَحصُلُ إلَّا بالمجاهدة والصَّبر، والصَّبر لا يتيسَّرُ إلَّا لمن صَدَقَ توكُّلُهُ على ربِّه، أتبعَ الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منزلةَ الشُّكر بمنزلة التوكل.

يقول ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**التوكل هو نِظام الإيمان وقَرِين التوحيد، وهو السبَب المؤدِّي إلى نفي الفقر ووُجود الراحة**». انتهى.

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «التوكل مِن الأمور الدينيَّة التي لا تتمُّ الواجباتُ والمستحباتُ إلَّا بها، والزاهدُ فيها زاهِدٌ فيما يحبُّ اللهُ ويأمُر به ويرضاه». انتهى.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَـــحِبُوا التَّوكُّلَ في جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعْ بَـذْلِ جُـــهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَـنِ

والتوكل هو: «**الاعتماد على الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **في حُصُول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثِّقة به، وفِعل الأسباب المأذون فيها**».[3]

١- «روضة العقلاء» (ص ١٥٣).

٢- «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٦).

٣- «القول المفيد» (٢/ ٢٥)، و«جامع العلوم والحكم» (ص ٦٦٨)، و«قاعدة في التوكل على الله» في «الفوائد» لابن القيم (ص ١٠٧). وعرّفَهُ العلامة ابن قاسم في =

وقيل: «**التوكل هو: قطع القلب عَن العلائق برَفض الخلائق، وإضافته بالافتقار إلى مُحَوِّل الأحوال**».(١)

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]، وحقيقة التوكل على الله أنْ يعلَمَ العبدُ أنَّ الأمرَ كلَّه لله، وأنَّه ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنَّه لا حولَ ولا قوة إلا بالله. فبَعد هذا العلم يعتمِدُ بقَلبِه على ربِّه في جَلْب مصالحِ دينِه ودنياه، وفي دفع المضارِّ، ويثِقُ غايةَ الوُثوق بربِّه في حُصول مطلوبه. وهو مع هذا باذِلٌ جُهدَه في فعل الأسباب النافعة. **فمتى استدام العَبدُ هذا العِلمَ وهذا الاعتمادَ والثِّقةَ فهو المتوكِّل على الله حقيقةً، وليُبشِر بكِفاية الله له ووَعدِه للمتوكِّلين، ومتى علَّق ذلك بغير الله فهو شِرك، ومَن توكَّل على غيرِ الله وتعلَّق به وُكِل إليه وخاب أمَلُه**.(٢)

=

«حاشية ثلاثة الأصول» بقوله: «**هو صدقُ التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له**».

١- «روضة العقلاء» (ص ١٥٦).

٢- «القول السَّديد» (ص ١١٩).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَــحِبُوا التَّوكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعْ بَـذْلِ جُــهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَـنِ

أي أنَّ السائرين إلى الله والدار الآخرة يستَصحِبون التوكلَ في كُلِّ شيءٍ مِن أمور دينهم ودنياهم، مع بذل الأسباب المشروعة.

لا توكلَ بغيرِ فعلٍ للأسباب

واعلم أنَّ الله ﷻ قد خلَق للآدميِّ آلةً يدافع بها عن نفسه الضَّرَر، وآلةً يجتلِب بها النَّفع، فإذا عطَّلها مدَّعِيًا للتوكل كان جهْلًا بالتوكل، وردًّا لحكمة الشارع، **لأنَّ التوكلَ إنَّما هو اعتمادُ القلب على الله سبحانه وليس مِن ضرورته قطعَ الأسباب**. ولو أنَّ إنسانًا جاع فلم يأكل، أو احتاج فلم يسأل، أو عَرِيَ فلم يلبَس، فمات دخل النار، لأنَّه قد دُلَّ على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسِه.[1]

يوضِّحه قولُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**أجمع القوم على أنَّ التوكلَ لا ينافي القيامَ بالأسباب، فلا يصِحُّ التوكلُ إلَّا مع القيام بها، وإلَّا فهو بِطالةٌ وتوكلٌ فاسِدٌ**.

قال سهل بن عبد الله: مَن طعَن في الحرَكة [أي: الأسباب] فقد طعَن في السُّنَّة، ومَن طعَن في التوكل فقد طعَن في الإيمان». انتهى.

وما العلاقة بين فعل الأسباب والتوكل؟

سألت الشيخ صالحا العُصيميَّ: هل التوكل متضمِّن أم مستلزِمٌ لفعل الأسباب؟

١- انظر: مقدمة كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١١).

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٤٧٩).

فأجاب -وفقه الله-: «الأسباب شَرْطُ التوكل، والشَّرْطُ خارِجٌ عن ماهيَّة الشيء».[1]

ونظمتُ هذا الجواب، فقلتُ:

إنَّ التَّـوَكُّلَ شَـرْطُـهُ الأَسْبَـابُ حِـرْمَانُـهُ عَـيْنُ الأَسَـى وَعَـذَابُ

فمن حُرِم التوكلَ عُذِّب في الدنيا قبل الآخرة.

ومِن بدائعِ العلاَّمة ابن سعدي في بيان **القَدْرِ المأذونِ به في التَعَلُّقِ بالأسباب**، قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «على العبد أن يكونَ توَكُّلُه واعتمادُه على الله، وأن يقومَ بالأسباب النافعة ولا يعتمد عليها، **ولكنَّ اللهَ إذا يَسَّرَها للعبد أو يَسَّرَ ثمراتها ونتائجها فِرحَ بها العبدُ واطمأنَّ بها قلبُه**[3]، **مِن غير اعتمادٍ عليها، بل**

١- وقد جمعت بفضل الله نحوا من خمسين مسألة أنقلها عن الشيخ صالح العصيمي -وفقه الله-، ولعل الله يُيسر نشرها قريبا إن شاء الله بعد اطلاع شيخنا عليها.

٢- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ٣٦).

٣- وقال شيخنا صالح العصيمي -وفقه الله- أثناء تعليقه على «فتح المجيد» (السنة الثانية/ المجلس ١٨): «**الطمأنينة إلى السبب نوعان:**

أحدهما: طمأنينة سُكون.

والآخر: طمأنينة رُكون.

=

استبشارا بأنها من فضله وتيسيره، ولهذا لما ذَكَرَ الله إمدادَ الملائكة للمسلمين في بدر قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٢٦]...». انتهى.

قال العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُعَدِّدًا فوائد قصة ذي القرنين وبناء السُّدِّ[١]: «ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجَري وراء سُنَّةِ الله في الكَون مِن الجِدِّ والعمل، وأنَّ **على قَدْرِ بذْلِ الجُهدِ يكونُ الفوزُ والظَّفَر**». انتهى.

فالسائرون إلى الله يسعَون في رضا محبوبهم سعيًا حثيثًا، مع صِدق الاعتماد عليه سبحانه، وعملًا بالأسباب المشروعة.

قال ابن القيم[٢]: «**ولو توكَّل العبد على الله حقَّ توكُّلِه في إزالة جبل عن مكانه -وكان مأمورًا بإزالته- لأزاله**».

=

والفرق بينهما: اقتران الثاني بالجَزم، فإنَّ القلبَ مع طمأنينة السُّكون يرجو حُصولَ مقصودِه ولا يَقطع به، وأمَّا في طمأنينة الرُّكون فيكمل تعلُّقه بالسَّبَب حتى يجزم بحُصول مقصودِه». انتهى.

١- «محاسن التأويل» (٧/ ٧٢).

٢- انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٦١).

الفرق بين الثِّقة بالله والغُرورِ والعَجزِ

الواثقُ بالله قد فعَل ما أمَره اللهُ به، ووَثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارسِ الشجرة، وباذرِ الأرض، **والمغتَرُّ العاجِزُ** قد فرَّط فيما أُمِر به، وزَعَم أنَّه واثِقٌ بالله، والثِّقة إنَّما تصِحُّ بعد بذل المجهود.[1]

وكان يحيى بنُ معاذ يقول: **عمَلٌ كالسَّراب، وقلبٌ مِن التقوى خرَاب، وذنوبٌ بعَدَد الرَّمل والتراب، ثم تطمعُ في الكواعب الأتراب؟! هيهات،** أنت سكران بغير شراب...[2]

يقول محمد المكي بن عزُّوز التونسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**فاليد تعمل، والقلب على الله يتوكل، واللسان يدعو الله**، فالشُّغل الواحد يخدمه الأعضاء الثلاثة، ولا تنافي بين وظائفها الثلاث، **هذا هو الشَّرع الكامل، وبه يتمُّ المأمولُ للآمل**». انتهى.

وهذا موضَّح في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بالله، ولَا تَعْجِزْ**».[4]

---

١ - «مدارج السالكين» (١/ ٤٨٥). وانظر: كتاب «الروح» (ص ٣٠٢).

٢ - «صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٢).

٣ - «العقائد الكُبرى» (ص ٥٣).

٤ - تقدَّم تخريجه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**والتوكل قد يكون قبل السَّبَب، ومعه، وبعده**. فيتوكل على الله أنْ يُقِيمَه في سبب يوصِلُه إلى مطلوبه، فإذا قام به توكل على الله حالَ مباشَرَتِه، فإذا أتـمَّه توكل على الله في حُصول ثمراته، **فيتوكل على الله قبله، ومعه، وبعده**». انتهى.

وليَعلَم العبدُ أنَّ الله كافِيه، فلا يُعلِّق قلبَه بالأسباب، فقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣]، والوُقوف مع الأسباب مع نسيان المسبِّب غلَطٌ.[٢]

يقول العلامة عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**فِعلُ السبب سُنَّة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جَمَعَ العبدُ بينهما تمَّ مُرادُهُ بإذن الله**». انتهى.

١- «مدارج السالكين» (١/ ٤٧٩).

٢- انظر: «صيد الخاطر» (ص ٥٤، ١٤٢).

٣- «فتح المجيد» (ص ٥٢٠)، بتصرف يسير. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١٠).

حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعِهم هو أكمل الأحوال

قال ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»، قالها إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣]».[1]

فحالُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحالُ الصحابة مِـحَكُّ الأحوال وميزانُها، بها يُعلَم صحيحُها مِن سقيمها، فإنَّ هِمَمَهم كانت في التوكل أعلى مِن هِمَم مَن بعدَهم، فإنَّ توكَّلَهم في فتح بصائر القلوب، وأنْ يُعبد اللهُ في جميع البلاد، وأنْ يوحِّد جميعُ العباد...[2]

وهذا هو حال جميع الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ وأتباعهم.

قال نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾[يونس: ٧١] الآية، وقال هود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾[هود: ٥٦]، وقال شعيب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ

١- رواه البخاري (٤٥٦٣).

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٤٩٤).

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]... إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «فقد كان زكريا نجّارًا، وقد أمَرَ اللهُ نوحًا أنْ يصنَع السَّفِينةَ، ولم يكُن في الصحابة مَن يُعَطِّلُ السَّبَب اعتمادًا على التوكل، بل كانوا أقْوَمَ الناس بالأمرين.

ألا تَرى أنَّهم بذَلوا جُهدَهم في مُحارَبة أعداء الدِّين بأيديهم وألسنتهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمَروا أموالهم وأصلَحوها، وأعَدُّوا لأَهلِيهم كِفايتَهم مِن القُوت، اقتداءً بسيد المتوكِّلين صلوات الله وسلامه عليه وآله». انتهى.

وأعظمُ التوكل على الله، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.[٢]

ولهذا كان صدقُ التوكل علامةَ إيمان العبد، والذي يتوكل على الله – جلَّ وعلا– يمضي في شأنه منشَرِحَ الصَّدر، لأنَّه فوَّض الأمرَ إلى الحيِّ الذي

١– «الروح» (ص ٣١٦).

٢– «الفوائد» (ص ١٠٧).

لا يموت، وهو الله جَلَّجَلَالُهُ وتباركت أسماؤه وصفاته.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٨ – ٥٩].

منزلة الإحسان

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَــبَدُوا الإلَـهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ ... فَـتبَوَّؤوا فِي مَنْــزِلِ الإحْــسَـــانِ

وهذه منزلة الإحسان، لأنَّ السائرين إلى الله والدار الآخرة إذا عبدوا الله عبدوه وكأنَّهم يرونه، وهذه من أعلى درجات الإحسان.

وللإحسان في عبادة الله مقامان:(١)

- **الأول**: أن تعبد الله كأنَّك تراه، **وهذا مقام المشاهدة.**
- **والثاني**: فإنْ لم كن تراه فهو يراك، **وهذا مقام المراقبة أو مقام الإخلاص.**

قال بعض السلف: «من عمل على مشاهدة الله، فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه، فهو مخلِص».(٢)

١- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٩)، و«مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٣٨٠)، وكتابي: «كأس السلسبيل من فوائد حديث جبريل» (ص ٢٦١-٢٦٧).

٢- «صفة الصفوة» (٢/ ٣١٥).

ومقام المشاهدة أعظم من مقام المراقبة، فمن عبَد الله كأنَّه يراه لم يكن ذلك إلَّا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنَّه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها.[1]

إذا رأيتَ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ، هل تتجرَّأ على معصيته؟

إذا رأيتَ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ، هل تسترسِل في الوساوس وأنت قائم تصلِّي بين يديه؟

إذا رأيتَ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ، هل تغفل عن ذكره ساعة؟

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾[الرعد: ١٩].

أفمن يرى بعينِ قلبه أنَّ ما أنزل اللهُ إلى رسوله هو الحق، كمن هو أعمى لا يبصر ذلك؟

لا ريب أنَّ تصديقَ الخبر واليقين: به يقوى القلب، حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين.

فصاحب هذا المقام: كأنَّه يرى ربَّه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطَّلِعًا على عباده ناظرًا إليهم، يسمع كلامَهم ويرى ظواهِرَهم وبواطِنَهم،

---

١ - انظر: «الجواب الكافي» (ص ٧٤).

وكأنَّه يسمعه وهو يتكلَّم بالوحي، ويكلِّم به عبدَه جبريل ويأمُرُه وينهاه بما يريد...[١]

فإنْ عجزتَ عن هذا المقام، انتقلتَ إلى مقام آخر، وهو أنْ تعلَمَ أنَّ اللهَ يراك ويطَّلِعُ على سرِّك وعلانيتك، ولا يخفى عليه شيء مِن أمرك، فتعبده بإخلاص وقوَّةِ عَزْم.[٢]

١- «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٥).

٢- انظر: «المنهج المبين» للفاكهاني (ص ١٥٦-١٥٧)، و«فتح الباري» لابن رجب (١/ ٢١١).

لا تكن وليًّا في العلانية عدوًّا لله في السِّر

فإذا كنتَ تعلم أن الله يراك، فإنَّه خَلِيقٌ بك أنْ تتركَ ما لا يُرضيه، وأنْ تجعلَ حِجابًا بينك وبين معاصيه.

قال بعضهم: «**خَفِ الله على قَدْر قُدرته عليك، واستحِ منه على قَدْر قُربه منك**».[1]

إذا مَا خَلَوْتَ الدَّهرَ يوْماً فلا تَقُلْ خَلَــوْتُ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
ولاَ تـحْـسَبَنَّ اللهَ يَـغفَلُ سَــاعَةً وَلا أنَ مَــا يُخفَى عَلَيْهِ يَغِيــبُ

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**قُطب الطاعات للمَرء في الدنيا هو إصلاحُ السرائر وتركُ إفسادِ الضمائر**». انتهى.

قال القحطاني في «نونيته»:

وإِذا خَــلَــوتَ بِريبَةٍ في ظُلــمَةٍ والنَفسُ داعِــيَةٌ إِلى الطُغيــانِ
فاِستَحي مِـن نَظَرِ الإِلَهِ وَقُــل لَها إِنَّ الَّذي خَلَـقَ الظَـلامَ يَـراني

لأنَّ ذنوبَ الخَلَوات مِن أعظم المهلكات، وهي سبيل المنافقين والمنافقات، قال تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ

١- انظر: «صفة الصفوة» (١/ ٤١٨) و(٢/ ٨١).

٢- «روضة العقلاء» (ص ٢٧).

مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

فالله -جل وعلا- عِلمُه محيط بكُلِّ شيء، وإنْ ظننتَ أنَّك تعصي الله في مكان لا يراك فيه، فبئس ما ظننتَ بربِّك الذي لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[فصلت: ٢٢ - ٢٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٦٠]، وقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران: ٥]، وقال:﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ – ١٤]، وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ٨ – ١٠]...

وعن ثَوْبَانَ عن النَّبِيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **هَبَاءً مَنْثُورًا**». قال ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ. قال: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، ولَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا**»[1].

قال بعضُهم لمن استوصاه: «**اتَّقِ اللهَ أنْ يكون أهونَ الناظرين إليك**»، وفي هذا المعنى يقول بعضُهم:[2]

يـا مُـدمِنَ الـذَّنْبِ أمـا تَسـتَحِي ... واللهُ في الخَلـــــوة ثانيكَـــــا
غَــرَّكَ مِــن ربِّــكَ إمهالُــه ... وسِـــترُهُ طُـــولَ مَســـاوِيكَا

وقال وهيب بن الورد رَحِمَهُٱللَّهُ: «**اتَّقِ أن تسُبَّ إبليسَ في العلانية، وأنتَ صديقُه في السِّر**».[3]

وفي قصيدة «ليس الغريب» لزين العابدين علي بن الحسين:

أنـا الَّـذِي أُغْلِقُ الأَبْـوابَ مُجْتَـهِداً ... عـلى المعـاصي وعَـيْنُ الله تَـنْظُرُنـي

قال السري السَّقطي رَحِمَهُٱللَّهُ: «**احذَر لا تكون ثناءً منشورًا، وعيبًا**

١- رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

٢- «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ١٥٣).

٣- «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٤).

مستورًا»[١].

يقول ابن القيم[٢]: «وكيف يكون عاقِلًا وافِرَ العقل مَن يعصي مَن هو في قبْضَته وفي داره، وهو يعلم أنَّه يراه ويشاهده، فيَعصِيه وهو بعينه غير مُتوارٍ عنه». انتهى.

ومَن أصلح سريرته، وخاف الله في السر والعَلَن، فاحَ طيبُه بين الخَلق، بخلاف مَن هابَ الخَلق، ولم يُراعِ خلوته بالحقِّ.

قال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إنَّ العَبدَ ليخلُو بمعصية الله تعالى، فيُلقِي اللهُ بُغضَهُ في قلوب المؤمنين مِن حيث لا يشعُر**»[٣].

وقال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُٱللَّهُ: «**مَن تَزَيَّنَ للناس بشيءٍ يَعلمُ اللهُ منه غيرَ ذلك شانَهُ اللهُ**»[٤].

وقال: «**إذا وافَقَت السَّريرةُ العلانيَّةَ فذلك العَدْلُ، وإذا كانت السَّريرةُ أفضلَ مِن العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانيَّةُ أفضلَ مِن السَّريرة**

١- المصدر السابق (١٠/ ١١٩).

٢- انظر: «الجواب الكافي» (ص ٨٤).

٣- انظر: «صيد الخاطر» (ص ١٢٦-١٢٧).

٤- «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧١).

فذلك الجَوْر».[1]

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١٢٠].

والموجب لـخَشيته الله في السر والعلانية أمور:[2]

١ - **منها**: قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

٢ - **ومنها**: النظر في شدة بطشه وانتقامه، وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد تركَ التعرض لمخالفته، كما قال الحسن: «ابنَ آدم، هل لك طاقة بمحاربة الله؟ فإنَّ مَن عصاه فقد حاربه، وقال بعضهم: «**عجِبتُ مِن ضعيفٍ يعصي قويًّا**».

٣ - **ومنها**: قوة المراقبة له، والعلم بأنَّه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنَّه مع عباده حيث كانوا.

---

١ - «تاريخ بغداد» (١٥/ ٢٢٤).

٢ - «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٤٦٢)، مختصرًا.

كمالُ حالهم في نُصح الخَلق

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نَـــصَحُوا الخليقَةَ في رِضَا مَحْبُوبِهِم بالعِلمِ والإِرشَادِ وَالإِحْـــسَـــانِ

فهؤلاء الذين بلَغُوا هذه الدرجاتِ العُليا مِن إخلاص، وصِدق، وحُب، وخوف، ورجاء، وتوكل، وذِكر، وغيرِ ذلك مِن المنازل التي مرَّت معنا، **حالهم مع الخَلق هو أكمَلُ الأحوال**، ولهذا قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَـــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِم]

فهم نَقاوة المسلمين، وخيرُ الناس للناس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأهلُ السنة والجماعة يتَّبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله، **فيتَّبعون الحقَّ ويرحمون الخَلق**». انتهى.

وقد ذكر اللهُ في كتابه عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنَّهم نصحوا لأممهم[٢] كما أخبر الله بذلك عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث قال: ﴿**وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٢]، وعن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال لقومه: ﴿**وَأَنَا۠ لَكُمْ**

١-«الفتاوى» (٣/ ١٧٤). وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص ٢٥١).

٢- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص ١١٦).

نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وعن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال بعد أن أهلك الله قومَه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

وهذه أيضًا وظيفةُ أتباع الأنبياء مِن الناصحين والعلماء، وقد أوضح هذا الأصل العلامةُ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقوله[1]: «**لا توجَد في الإسلام «وظيفة» أشرفُ قدرًا، وأسمى منزلةً، وأرْحَبُ أُفُقًا، وأثقلُ تَبِعَـةً، وأوثَقُ عَهدًا، وأعظمُ أجرًا عند الله، مِن وظيفة العالم الديني!** ذلك لأنه وارث لمقام النبوَّة، وآخذ بأهم تكاليفها وهو الدعوة إلى الله وتوجيه خلقه إليه وتزكيتهم وتعليمهم وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له». انتهى المقصود مِن كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه تتمة.

وقال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**صلاحُ القلب بكمال الإنابة إلى الله وقوة التوكل عليه، وتَمامِ الإخلاص له، ومَحبَّة الخير لكافة الخَلق، وفسادُه ونَقصُه بضدِّ ذلك**». انتهى.

١- «الآثار» (٤/ ١٠٩). وانظر مقدمة كتابي: «مَرابع الإحسان شرح المعاني الحسان».

٢- «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ١١).

بل عدَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مِن علامة سعادة الإنسان في الدارين أنْ تراه قاصِدًا للخير لكافة المسلمين، حريصًا على هدايتهم ونصيحتهم بما يقدر عليه مِن أنواع النُّصح**، مؤْثِرًا لسَتر عوراتِهم وعدم إشاعتها، قاصدًا بذلك وجه الله والدار الآخرة.[1]

وهذا بيَّن الناظمُ أنَّ السائرين إلى الله نَصَحُوا الناسَ طلبًا للثواب، وطاعةً لربِّ الأرباب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم]

ومحبوبُهم هنا هو الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم لا يطلُبون مِن الناس أجرًا ولا ثناءً، ولا جزاءً ولا شُكورا، كما هي حال الأنبياء والمرسَلين الذين كان شِعارُهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٩٠]، و﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[هود: ٥١]، و﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء] في خمسة مواضع من «سورة الشعراء» (الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠). والآيات في هذا كثيرة.

١- «رسالة في الحث على اجتماع المسلمين» (ص ٣٧).

فسؤال الأجر سِمَةُ مَن لا يرجو اللهَ والدارَ الآخرة، أمَّا أتباعُ الأنبياء والمرسَلين فهم على طريقتهم، لا يَسألون مِن الناس الأجر، ولا يتعلَّقون بالخلق، لأنَّهم ناصِحون للناس في رضا الحق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨].

فمن اتَّبع النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فينبغي له أن يتَّصِف بهذه الأوصاف، ومنها: الدعوة إلى الله صِدقًا وإخلاصًا، وبعِلم وحِكمة.

ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ عند هذه الآية من «مسائل كتاب التوحيد» أنَّ فيها: «**التَّنبيه على الإخلاصِ، لأنَّ كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحقِّ، فهو يدعو إلى نفسه**». انتهى.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ معلِّقًا(١): «**فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلَّا أن يقومَ دينُ الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أنْ يكونَ قولُه هو المقبول، حقًّا كان أم باطلًا**». انتهى.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ عند شرح حديث «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»: «**والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادُهم إلى مصالحهم، وتعليمُهم أمورَ دينهم**

١- «القول المفيد» (١/ ٧٩).

ودنياهم، وسترُ عوراتِهم، وسَدُّ خَلَّاتِهم...». انتهى.[١]

فالسائرون إلى الله يبلِّغونَ الناسَ الخيرَ، وَلاَ يَغُشُّونَهُم، **ويقولونَ الحقَّ، على الوجه الحقِّ، ولا يبالونَ بسخط الخَلقِ في مقابلة الحق**، لأنَّهم يعملون بقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«مَن الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ وأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ ومَن الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عليه الناس»**.[٢]

وفي الحديث: عقوبة مَن خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأنَّ العقوبة قد تكون في الدين، عِياذا بالله من ذلك![٣]

فالذين حقَّقوا هذه المنازل العظيمة، يصلِحونَ الخَلَقَ بما يرَونه نصيحةً لهم، لا بما يرضاه الناس ويهوَونه، فإنَّ العامة والدَّهماء إنَّما سُمُّوا بذلك من العَمَى وقِلَّةِ البصيرة، فلا ينبغي لك أنْ تبذُلَ للناس ما يحبُّونه، ولكنْ ابذُل

١- «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٥). وانظر: «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» للسفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ (١/ ٤٤، وما بعدها).

٢- رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٧٦)، واللفظ له، والترمذي (٢٤١٤) ، وصححه الألباني.

٣- «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٢٦). وانظر كتابي: «تسلية المؤمنين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين».

لهم ما يرضاه الله ولو أبَى مَن أبَى.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العاقل مَن يحفَظُ جانب الله ﷻ، وإنْ غضب الخلقُ، **وكلُّ مَن يحفَظُ جانب المخلوقين، ويضيِّعُ حَقَّ الخالق، يقلِبُ اللهُ قلبَ الذي قصَد أنْ يرضيَه فيُسخِطه عليه.**

قال المأمون لبعض أصحابه: «**لا تعصِ الله بطاعتي فيسلِّطَني عليك**».

وعلى ضدِّ هذا، كلُّ مَن يراعي جانب الحَقِّ والصواب، يرضى عنه مَن سَخِطَ عليه... فينبغي أنْ يحسِنَ القصدَ لطاعة الخالق، وإنْ سخِطَ المخلوق، فإنَّه يعود صاغرًا، ولا يُسخِط الخالق، فيفوتَ الحظَّان جميعا». انتهى.

إذا صحَّ مِنكَ الـوِدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ ... فكُلُّ الـذي فـوقَ التُّـرابِ تُرابُ

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ما أدرك عندنا مَن أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنَّما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنُّصح للأمة»**.[2]

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومة «منهج الحق»:

وقَلْبَكَ طَهِّرْهُ ومِنْ كُلِّ آفَّةٍ ... وكُنْ أبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

وجَمِّلْ بِنُصحِ الخَلْقِ قَلْبَكَ إنَّهُ ... لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وأَجْوَدُ

---

١ - «صيد الخاطر» (ص ١٨٩)، باختصار.

٢ - «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٣).

وقد قال أحد السلف: «**لوددت أنَّ جسدي قُرِض بالمَقاريض وأنَّ هذا الخلقَ أطاع الله**».[١]

يعني: لو كان جسدُه قطِّع بالمقصَّات الكبار والناس أطاعوا الله لكان الأمر هيِّنًا، **وهذا مِن عِظَم محبَّته لهم**.

وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو في سجوده يقول: «**اللَّهُمَّ مَن كان مِن هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنَّه على الحق فرُدَّه إلى الحق ليكونَ مِن أهل الحق**»[٢]، ويقول: «**اللَّهُمَّ إنْ قَبِلْتَ مِنْ عُصَاةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِدَاءً، فاجْعَلْنِي فِدَاءً لهم**»[٣]، وهذا أعظمُ ما يكون مِن المحبَّة للخَلق والنُّصح لهم.[٤]

---

١ - «صفة الصفوة» (٢/ ٢٢٩).

٢ - انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٠٥).

٣ - انظر: «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٩٠).

٤ - انظر: «الَّلآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» للعلامة صالح آل الشيخ (٢/ ٦٢٥).

فهؤلاء القوم، كما قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[نَـــصَحُوا الخليقَةَ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِم]

بماذا نصحوهم؟ بأعظمِ شيء يوصلهم إلى تلك المنازل العليا، وهو:

[بالعِلْمِ والإِرْشَادِ والإِحْسَـــانِ]

فأعظم ما تُقَدِّمُه للناس نصحُهم وإرشادُهم للخير، وأعظمُه التوحيد، وتحذرُهم مِن الشر، وأعظمُه الشرك.

فهؤلاء الذين ذكرهم الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد كمَّلُوا أنفسَهم، وكمَّلُوا غيرَهم، وهذه منزلة عالية، يَمُنُّ اللهُ بها على خاصة عباده.

فلا ينبغي لَمِن عَرفَ فضلَ التوحيد وخَطرَ الشرك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهالُ، ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك مِن الناس؟ بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين»[1].

وهذا، ذكر أهلُ العلم أنَّ مِن **حقوق الأخوة النُّصحَ والتعليمَ**، إذ ليست حاجة المسلم إلى العلم بأقلَّ من حاجته إلى المال.»[2]

١- «تيسير العزيز الحميد» (ص ٩٤).

٢- «صفة الصفوة» (١/ ٢٤٢).

وقد قيل: «**كلُّ ناصحٍ صَدِيق، وليس كلُّ صَدِيقٍ ناصحًا**».[١]

ومِن حِكَمِ أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من موعظة يعِظُ بها قومَه فيفترِقون قد نفعَهم الله عَزَّوَجَلَّ بها».[٢]

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «**ورَحِم اللهُ مَن أعان على الدين ولو بشَطر كلمة**، وإنَّما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين». انتهى.

---

١ - «الأخلاق» لابن حزم رَحِمَهُٱللَّهُ (ص ٢٤).

٢- انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٠٢).

٣- «القول السديد» (ص ٢٧-٣٠).

نكتة بديعة في أهميَّة الدَّعوة إلى التوحيد وخطر كتمانه

حذَّر اللهُ تعالى مِن كتمان الحقِّ، فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩]، وأعظمُ حقٍّ هو التوحيد، ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٣].

وفي هذا **نكتة بديعة** نبَّه عليها القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»[1]، **فقال**:

«**لما حذَّر تعالى من كتمان الحق بيَّن أنَّ أولَ ما يجب إظهارهُ ولا يجوز كتمانه أمرُ التوحيد**، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء». انتهى.

قلت: ومما يؤكد هذا، أنَّه جاء في الآيات بعدها الكلام على عاقبة مَن لم يهتد لحقيقة التوحيد، وعانَد ربَّه بأعظمِ ظُلم وأقبحِ ذنب، وهو اتخاذ الأنداد من دون الله سبحانه، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾، الآيات [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

١- «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٩٠). وانظر: رسالة نافعة بعنوان: «مقاصد سورة البقرة» للشيخ عبد المالك رمضاني -وفقه الله تعالى-.

تَعلُّق قلوبهم بالله

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صَحِبُوا الخَلائِقَ بالجُسُومِ وإنَّما   أرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

فهُم في الأرض معنا، لكنَّ قلوبَهم عند الله -جلَّ في عُلاه وتقدَّس في عالي سَماه-، فما مِن شيء يعملونه إلَّا والغايةُ منه هي الله، والقلب متعلِّق بالله، حُبًّا ورجاءً وخوفًا.

فهُم مَع ما تحلَّوا به مِن الفَضَائِلِ ومِن نُصحٍ للخَلق، فصُحبَتُهم لهم بالظَّاهر والجِسم، **وأمَّا قلوبُهم وأرواحُهم، فإنَّها تجولُ حولَ الحبيب وتطلبُ من قُربه أعظمَ نصيب، فتارةً تنكسِر بين يديه، وتخشعُ وتخضع لديه،** وطوْرًا تشكُره لِحُبِّه، وتدلُّ لاستحضارِ بِرِّه وقُربِه، ثم تميلُ إلى مَراضيه، فتجتهدُ في عبادتِه وتحسنُ إلى مخلوقاتِه، فهؤلاء هم الناس، بل هم العقلاء الأكياس، ولا حول ولا قوةَ إلا بالله.[1]

قال بعض السلف: «**إن هذه القلوب جوَّالة، فمنها ما يجُول حول العرش، ومنها ما يجُول حول الحُشِّ**»[2]. والحُشُّ: المرحاضُ، والكنيف،

١- انظر: شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٨).

٢- انظر: «شرح حديث النزول» لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٤٩).

وبيت الخلاء.[١]

فما أوسعَ الفَرق بين قلوب تجُول حول الحُشِّ إذا جالت النفوسُ العلوية حول العرش، وتندَسُّ في الأحجار إذا طارت النُّفوس الزكية إلى أعلى الأوكار...[٢]

ومِن كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يمدح العلماء، قال: «**صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ في المَحَلِّ الأعلى...**».[٣]

وقال آخر: «**أبدانُ العارفين في الدنيا وقلوبُهم في الآخرة**».[٤]

كل الناس في الأرض، غير أن قلوب البعض في السماء، والبعُض قلوبهم في أماكن الخلاء. ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾[هود: ٢٤].

شـــتَّـــان بـين مُـــشَرِّق ومُـــغـرِّبِ

وقسَّم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ القلوب إلى قلبين[٥]، وهما:

١- انظر: «المصباح المنير» للفيومي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٧٨).

٢- انظر: «روضة المحبين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٦٠).

٣- انظر: «حلية الأولياء» (١/ ٧٩).

٤- «لطائف المعارف» (ص ٤٠٧).

٥- انظر «الفوائد» (ص ٢٨)، و«الجواب الكافي» (ص ١٢٠).

قلبٌ: **هو عرش الرحمن**، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير.

وقلبٌ: **هو عرش الشيطان**، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين على ما مضى مهموم بما يستقبل مغموم في الحال...

والنور الذي يدخل القلب إنَّما هو مِن آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته، فحظُّه الظلمة والضيق». انتهى.

والناس في هذا على تفاوت عظيم.[١]

فإذا قَوِيَ حالُ المُحِبِّ ومعرفتُه، لم يشغَله عن الذكر بالقلب واللسان شاغِل، فهو بين الخَلق بجِسمه، وقلبُه معلَّق بالمحَلِّ الأعلى، كما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وصفهم: «**صحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ في المَحَلِّ الأعلى**». وفي هذا المعنى قيل:

جِسمِي مَعِي غَيرَ أنَّ الرُّوحَ عِندَكُمُ ... فالجِسمُ في غُربةٍ والرُّوحُ في وَطَنِ

وقال غيره:

ولقَد جَعلتُكَ في الفُؤاد مُحدِّثي ... وأَبحْتُ جِسمي مَن أراد جُلوسي

فالجِسمُ مِنِّي للجَليس مُؤَانسٌ ... وحَبيبُ قلبي في الفُؤاد أنيسي

وهذه كانت حالُ الرُّسل والصِّدِّيقِين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ.

١- انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص ٦٨٥)، و«لطائف المعارف» (ص ٤٠٧).

منزلة الرِّعاية والخوف من سوء الخاتمة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بـــالله دَعْـــوَاتُ المشَـاهِـــدِ كُلِّهَا   خَوْفاً عَلى الإِيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ[1]

بالرَّغم مِن منازل الحقِّ التي نَزَلُوها، ومنزلة النُّصح للخَلق التي تبوَّؤوها، والأرواح الفوقانية التي مُنِحوها، فهُم مع ذلك **يخافون على إيمانهم مِن النقصان، وعلى أنفسهم مِن الخِذلان.**

وهذه **منزلة الرِّعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان**، وذلك أنَّ العبدَ لا ينبغي له أنْ يُعرِضَ عن تدبُّر أحواله، والتفكُّر في نقص أعماله، بل يبذل جُهدَه قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصُونه عن

١- يَرى الشيخُ عبد الرزَّاق العباد البدر في شرحه أنَّ الأقربَ ضبطُ البيت على هذا الوَجه:

رَعَوُا الحقائقَ والمشاهِدَ كُلَّها   خَوْفاً عَلى الإِيـــمَانِ مِنْ نُقْصَـــانِ

وبهذا، يَظهَر أنَّ المقصودَ مِن هذا البيت الإشارَةُ إلى «مَنزلة الرعاية»، وذلك بقوله: (رَعَوا).

قلت: ولهُ وَجهٌ، ولكنَّه مُخالِفٌ لما قُرِئَ على المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي أثبته هو الذي يختارُه شيخُنا صالح العصيمي، وقد قرأ المَنظومَة على تلميذ الناظم: العلامة عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المفسدات، وينزِّهُه عن المنقصات، **فإنَّ حِفظَ العمل أعظمُ مِن العمل، فكلَّما ازداد العبدُ رِعاية لعمله واجتهادا فيه ازداد إيمانُه، وكلَّما نقص مِن ذلك نقص مِن إيمانه بحسبه.**[1]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**منزلة الرعاية: وهي مراعاةُ العِلم وحِفظُه بالعمل**، ومراعاةُ العمل بالإحسان والإخلاص، وحِفظُه من المفسدات، ومراعاةُ الحال بالموافقة، وحِفظُه بقَطع التفريق. **فالرعاية صِيانة وحِفظ**». انتهى.

فالسائرون إلى الله يخافون على إيمانهم من الضياع، **إذ ليست العِبرة بنَقص البداية، ولكنَّ العِبرةَ بكمال النهاية.**

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[المؤمنون:٦٠-٦١]. قالت عائشة: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن هذه الآية: **أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمرَ ويَسْرِقُونَ؟** قال: «**لا يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، ولكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وهُمْ يَخَافُونَ أنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ**، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ

١- شرح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٩).

٢- «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٧).

لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾».(١)

فهم يفعلون الطاعة، ومع ذلك يخافون مِن عَدَم القبول، ولذلك يقول العلماء: لا بُدَّ للطائع أنْ يخافَ اللهَ ولو كان في أعظم مقامات الطاعة.

وخوفُ الله هنا يكون مِن جهتين:

- **الجهة الأولى**: أنَّ المؤمنَ يخافُ عَدَمَ قبول عمله.
- **والجهة الثانية**: أنَّ المؤمنَ يخاف مِن سوء الخاتمة.

١- رواه الترمذي(٣١٧٥)، واللفظ له، وابن ماجه (٤١٩٨). وانظر: «الصحيحة» (١٦٢).

الخوف مِن عدم قبول العمل

فأمَّا الجهة الأولى، وهي: الخوف مِن عدَم قبول العمل، فقد قال ابن عون: «**لا تثِق بكثرة العمل، فإنَّك لا تدري: يقبل منك أم لا؟** ولا تأمَن ذنوبَك فإنَّك لا تدري هل كُفِّرَت عنكَ أم لا؟ لأنَّ عملَك مُغيَّبٌ عنك كلُّه لا تدري ما اللهُ صانع به؟».

وكان السلفُ الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد ذلك بقبوله، ويخافون مِن رَدِّه، وهؤلاء الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

روي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «**كونوا لقبول العمل أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل**، ألم تسمعوا الله عَجَّلَ يقول:﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]». وعن فضالة بن عبيد، قال: «**لأنْ أكونَ أعلم أنَّ اللهَ قد تقبَّل منِّي مثقالَ حَبَّة مِن خَرْدَل أحبُّ إلي مِن الدنيا وما فيها، لأنَّ الله يقول:** ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾».

قال ابن دينار: «الخوفُ على العمل أنْ لا يُتقبَّل أشدُّ مِن العمل». وقال عطاء السلمي: «الحذر: الاتقاء على العمل أنْ لا يكون لله». وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «**أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع**

عليهم الهمُّ أيقبل منهم أم لا؟».[١]

قلت: وَلكنَّ بعضَ الناس إذا تكلَّمَ عن حاله، فكأنَّه قد اتخذ عند الله عهدًا مِن فَرْط أَمنِهِ مِن مَكرِ الله جَلَّجَلَالُهُ، وقد أشار إلى هذا ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله[٢]: «**ولقد قطَّع خوفُ سوء الخاتمة ظهورَ المتَّقين، وكأنَّ المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان،** ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾[القلم: ٣٩ –٤٠]». انتهى.

قال الفُضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: «ما يؤمِّنُك أنْ تكون بارَزْتَ اللهَ بعمل مقتَك عليه، فأغلَقَ دونك أبوابَ المغفرة، وأنتَ تضحك؟ كيف ترى تكون حالُك؟».[٣]

١- «لطائف المعارف» (ص ٢٩٥)، «الحجة في سير الدلجة» (١/ ٤٥٨) و«مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٣٨٢).

٢- «الجواب الكافي» (ص ٩٤).

٣- «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٠).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ومِن الاغترار أنْ تُسِيء فترى إحسانًا فتظُن أنَّك قد سُومحتَ، وتنسى ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣]».

وقال: «واعلم أنَّه مِن أعظم المِحَن الاغترارُ **بالسلامة بعد الذنب، فإنَّ العقوبة تتأخَّر**». وقال: «وعمومُ العَوَام يبارِزون بالذنوب اعتمادًا على العفو، وينسوَن العقاب. **ومنهم مَن يعتمد «أنِّي مِن أهل السنة، أو أنَّ لي حسناتٍ قد تنفع»**، وكلُّ هذا لقُوَّة الجهل». انتهى.

ولهذا قال سعيد بن جبير: «**رُبَّ حَسَنَةٍ أدخَلَت صَاحِبَهَا النَّارَ، وَرُبَّ سَيِّئَةٍ أدخَلَت صَاحِبَهَا الجَنَّة**». لماذا؟

قال أهل العلم: إنَّ فاعِلَ الحسنة عَمِلَها، فلم تزَلْ بين ناظِرَيه مُعجَبًا بها، مُغترًّا، مُدلِيًا على ربِّه، مُستعلِيًا، على خَلقه، فزَخَّت في قَفاه، فأدخلته النار.

وإنَّ فاعِلَ السيِّئة لم تزَلْ سيِّئتُه بين ناظِرَيه، يخاف عاقِبَتَها، ويخشى شُؤمَها، فهو بمنزلةِ واقِفٍ تحت جدار يخشى أنْ ينقضَّ عليه، فيَحمِلُه خوفه

---

١ - «صيد الخاطر» (ص ١٣٣، ٣٤٢).

ذلك على دوام الإقبال على الله، فيغفر الله له، ويدخله الجنة.[1]

وروي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُه: «**إنَّ العَبدَ ليذنب الذَّنب فيدخلُ به الجنَّة**»، فقيل: كيف ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «**يكون نَصْبَ عينه تائِبًا منه فَارًّا حتَّى يدخلَ الجنَّة**».[2]

وروي عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ لينفَعُ العَبدَ بالذَّنب يُذنِبُه**».[3]

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ[4]: «وهذا كلُّه ليس تَنْويهًا لارتكاب الخطايا، بل المرادُ أنَّه إذا أذنب فنَدِم بذُلِّه وانكسارِه نفعَه ذلك». انتهى.

وهذا قال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «**لأَنْ أبِيتَ نائمًا، وأصبِحَ نادمًا، أحَبُّ إليَّ مِن أنْ أبيتَ قائمًا فأصبِحَ مُعجبًا**».[5]

١- انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٢)، و«الوابل الصيب» (ص ٤)، فإنَّه مفيد جدًّا.

٢- قال العراقي رَحِمَهُ اللهُ في «تخريج الإحياء» (ص ١٣٤٨): «أخرجه ابن المبارك في «الزهد» [١٦٢] عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا».

٣- انظر: «ضعيف الجامع» (١٦٦١).

٤- «فيض القدير» (٢/ ٢٦٤).

٥- رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠).

ولَمَّا أطال بِشرُ بنُ منصور الصلاةَ، قال بعد سلامه لمن أدرَك أنَّه فَطِن له: «لا يُعجِبك ما رأيتَ منِّي، فإنَّ إبليسَ -لعنه الله- قد عبَدَ الله مع الملائكة مُدَّةً طويلةً ثمَّ صار إلى ما صار إليه».[1]

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «اعترافُ المذنبين بذنوبهم وتقصيرِهم في حقِّ مولاهم، وتنكيسُ رؤوس عُجبِهم، أحبُّ إلى الله مِن فعل كثير من الطاعات، **فإنَّ دوامَ الطاعات قد توجِبُ لصاحبها العُجب**».

وفي الحديث[3]: «**لو لَم تكونُوا تُذْنِبُونَ لَخشِيتُ عليكم ما هو أكْثَرُ مِن ذلك، العُجْبَ**».

قال الحسن: «**لو أنَّ ابنَ آدم كُلَّما قال أصابَ، وكُلَّما عمِل أحسنَ، أوْشَكَ أنْ يُجَنَّ مِن العُجب**».

وقال بعضهم: «ذنب أفتَقِرُ به إليه، أحبُّ إليَّ مِن طاعةٍ أُدِلُّ بها عليه».

ثم قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أنِينُ المذنبين أحَبُّ إليه مِن زَجَلِ**

١- انظر: «الزواجر عن اقتراف الكبائر» للهيتمي (١/ ١٢٢).

٢- «لطائف المعارف» (ص ٢٨) باختصار. وانظر: «الفوائد» (ص ٨٥)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٣٠).

٣- رواه البزَّار في «مسنده» (٦٩٣٦)، وقال الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٢١): حسن لغيره.

المُسَبِّحين[١]**، لأنَّ زَجَلَ المُسَبِّحين رُبَّما شابَهُ الافتخار، وأنينُ المذنِبين يزيِّنُه الانكسار والافتقار.**

قال الحسن: «إنَّ العَبدَ ليعمل الذَّنبَ فلا ينساه، ولا يزالُ مُتخوِّفًا منه حتَّى يَدخُلَ الجنَّة».[٢]

المقصود مِن زللِ المؤمن نَدَمُه، ومِن تفريطٍ أَسَفُه، ومِن اعوِجاجِه تَقويمُه، ومِن تأخرِّه تَقديمُه، ومِن زَلَقه في هُوَّة الهَوى أنْ يُؤخَذَ بيده فينجى إلى نجوة النجاة». انتهى.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**والذَّنبُ يوجِبُ ذُلَّ العَبدِ وخُضوعَه**، ودعاءَ الله واستغفارَه إيَّاه، وشُهودَه بفَقره وحاجتَه إليه، وأنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلَّا هو». انتهى.

ويقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «**ولا شكَّ أنَّ بعضَ الزلَّات ينالُ صاحبُها بالتوبة منها درجةً أعلى مِن درجته قبل ارتكاب تلك الزلَّة**». انتهى.

١- أي: صوت المُسَبِّحين.

٢- انظر «الزهد» للإمام أحمد (١٥٨١).

٣- «الفتاوى» (١٤/ ١٨١). وانظر «مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية» لصالح الشامي (ص ٨٨).

٤- «أضواء البيان» (٤/ ٣٧٨).

الخوف من سوء الخاتمة

وأما الجهة الثانية، فهي أنَّ المؤمنَ يخاف مِن سوء الخاتمة.

وكيف يأمَن مَن قلبُه بين أصبعين؟ وكيف يطِيبُ عَيْشُ مَن لا يدري بما يُختَم له؟[1]

فإنَّ الأعمالَ بالخواتيم، وكم مِن عَبْدٍ سار إلى الله سيرًا، ثمَّ خُذِل في آخِرِ عُمره، والعياذ بالله مِن سوء الخواتيم.

والأمر كما يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**خاتمة السُّوء تكونُ بسَبَب دَسِيسَةٍ باطنةٍ للعَبد، لا يطَّلِعُ عليها الناس**». وقال: «**دَسائسُ السُّوء الخَفِيَّة تُوجِب سوءَ الخاتمة**». انتهى.

ولا تظننَّ بربِّك ظنَّ السَّوء، فإنَّه لا يخذل عَبدَه المُطيعَ الصادقَ، فقد وَعَد سبحانه مَن عمِل صالحًا بالخير في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]، وقال -وهو أكرم القائلين-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

١- انظر: «رسائل ابن رجب» (١/ ٣٦٩).

٢- «جامع العلوم والحكم» (ص ٨٦).

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[النساء: ١٢٢]، في آيات كثيرة.

ومَن ساءت خاتمتُه، فينطبِقُ عليه وصفُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ عَمَلَ أهْلِ الجنَّةِ فيما يَبْدُو لِلنَّاسِ، وهُوَ مِن أهْلِ النَّارِ».[1]

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ[2]: «فيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»: فيدع العمل الأوَّل الذي كان يعملُه، **وذلك لوجود دَسِيسَةٍ في قلبه** -والعياذ بالله- **هَوَت به إلى هاوِيَة.**

أقول هذا لئلاَّ يُظَنَّ بالله ظَنُّ السَّوء: فوالله ما مِن أحَدٍ يُقبِلُ على الله بصِدق وإخلاص، ويعمَلُ بعمَل أهلِ الجنَّة إلَّا لم يخذُله اللهُ أبدًا. **فاللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **أكرَمُ مِن عبدِه، لكن لا بُدَّ مِن بلاءٍ في القَلب**». انتهى.

وقال الحافظ عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللهُ[3]: «**واعْلَم أنَّ سُوءَ الخاتمة** -أعاذنا الله منها- **لا يكونُ لَمن استقام ظاهرُه وصلَح باطِنُه، وإنَّما يكونُ ذلك**

١- رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

٢- «شرح الأربعين النووية» (ص ٨٧).

٣- «العاقبة في ذكر الموت» (ص ١٨٠-١٨١). وعلَّقَ ابن حجر على كلام الإشبيلي في «فتح الباري» (١١/ ٥٩٦) بقوله: «هو مَحمولٌ على الأكثر الأغلب». انتهى.

=

لَمن كان له فسَادٌ في العَقل، وإصرارٌ على الكبائر، وإقدامٌ على العَظائم، فربَّما غَلَب ذلك عليه حتَّى ينزِلَ به الموتُ قبل التَّوْبَة، ويثِبَ عليه قبل الإنَابَة، ويأخُذَهُ قبل إصلاح الطَّوِيَّة، فيَصْطَلِمَهُ الشَّيطانُ عند تلك الصَّدمَة، ويختَطِفَه عند تلك الدَّهشَة، **والعياذ بالله ثمَّ العياذ بالله أنْ يكون لمن كان مُسْتَقِيمًا لم يتَغَيَّر عن حَاله، ويخرجْ عن سُنَّته، ويأخذْ في غير طريقه، فيكون ذلك سَببًا لسُوء الخاتمة وشؤم الْعَاقِبَة وَالْعِيَاذ بِاللهِ**». انتهى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية[1]: «أي: حافظوا على الإسلام في حال صِحَّتِكم وسلامَتِكم لتمُوتوا عليه، **فإنَّ الكريمَ قد أجرى عادتَه بكَرَمِه أنَّه مَن عاش على شيء مات عليه، ومَن مات على شيء بُعِثَ عليه**، فعياذًا بالله مِن خلاف ذلك». انتهى.

ومِصداقُ هذا في ما جاء عن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ

=

وانظر: تفاسير السلف لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[الأعراف: ٢٩ - ٣٠].

١ - «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٨٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ على ما مَاتَ عليه**».(١)

وإذا عرفتَ معنى سوءِ الخاتمة، فاحذَر أسبابَها، وأعِدَّ ما يصلُح لها، وإيَّاك والتسويفَ بالاستعداد، فإنَّ العُمرَ قصير، **وكلُّ نفَسٍ مِن أنفاسك بمنزِلة خاتمتك، لأنَّه يمكِن أنْ تُخطَف روحُك**، والإنسانُ يموت على ما عاش عليه، ويُحشَر على ما مات عليه.(٢)

فالمؤمن يخافُ أن يَضِلَّ قبلَ أن يَموتَ، وإنْ كان حَالُهُ الآنَ حَسَنًا.

و**أغْبَى النَّاس مَن ضلَّ في آخر سَفَره وقد قارَب المنزِل**.(٣)

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «بالله عليك تفكَّر فيمن قطَع أكثرَ العُمر في التَّقوى والطاعة، ثمَّ عرَضَت له فِتنةٌ في الوقت الأخير، كيف نَطَح مَركَبُه الجُرْف؛ فغرِق وقتَ الصُّعُود». وقال أيضًا: «فالحذَرَ الحذَرَ، **فقد رأينا مَن كان على سَنَن الصواب ثمَّ زَلَّ على شفِير القبر**». انتهى.

فمَن أراد طريق السلامة، تزَحْزَح عن أسباب الهلاك، **على أنَّ العِلمَ**

١- رواه مسلم (٢٨٧٨).

٢- «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٩٣).

٣- «الفوائد» (ص ١٣٤).

٤- «صيد الخاطر» (ص ١٠٣).

بتقليب القلوب وتغيِير الأحوال، يُقَلقِل قلوبَ الخائفين.[١]

١ - «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٩٣).

مِن أسباب سوء الخاتمة

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدَّم على الموت:[١]

- مثل البدعة،
- والنفاق،
- والكِبر،
- والرياء،

ونحو ذلك مِن الصفات المذمومة التي اشتدَّ خوفُ السلف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مِنها، والتي **عليها تدور عوائقُ السَّير إلى الله**، وتقدَّم ذكرُها في أوَّلِ هذا الشرح.

ولا ينجو يومَ القيامة إلَّا قلبٌ سليمٌ، وصفه ابنُ رجب رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله[٢]: «هو الذي ليس فيه شيءٌ مِن محبَّة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامتُه مِن الشِّرك الجليِّ والخفيِّ، ومِن الأهواء والبدع، ومِن الفسوق والمعاصي -كبائرِها وصغائرِها- الظاهرةِ والباطنةِ، كالرِّياء والعُجب، والغِلِّ والغِشِّ، والحِقد والحسَد، وغيرِ ذلك.

١- نفس المصدر (ص ٣٩١).

٢- انظر: «رسائل ابن رجب» (١/ ٣٨٣). وانظر: «الفتاوى» (١٠/ ٣٣٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٧).

وهذا القلب السَّليم هو الذي لا ينفع يومَ القيامة سواه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨ – ٨٩]». انتهى.

وعليه، فمَن صفَّى سَيرَه مِن العوائق والمُكدِّرات، كان حَرِيًّا به أنْ يُكرَم في الحياة، وعند السَّكَرات، وبعد الممات.

والاستعداد للخاتمة مِن وسائل النجاة، وهما استعدادان:[1]

- **استعدادٌ في صلاح القلب**: وذلك بالعِلم النافع الذي يُورِث في القلب العلمَ بالله ﷻ ومعرفتَه وأسمائه وصفاته واليقين في ذلك.
- **واستعدادٌ في صلاح العمل**: بأنْ يمتثل الأمرَ، ويجتنب ما نهى الله عنه، أو نهى عنه رسولُه ﷺ، وأنْ يكون العملُ خالصًا صوابًا، خالصًا لله، ووفق منهج رسول الله ﷺ، وأنْ يستغفر مِن الذنوب والخطايا.

نسأل الله الكريم أنْ يجعلَنا مِن عباده المُكرَمين في الدنيا والآخرة.

---

١ – «شرح الطحاوية» للعلامة صالح آل الشيخ –وفقه الله– (٢/ ٤٩٩–٥٠٠).

حال السلف مع ذِكر الخواتيم

ومَن تأمَّل حالَ السَّلف، عرفَ قَدْرَ خوفِهم مِن الله، ومِن سوء الخاتمة، بل والموتِ على غير التوحيد.

وبوَّبَ البخاري في «صحيحه» في كتاب الإيمان، «**باب: خوفُ المؤمن من أن يحبطَ عملُه وهو لا يشعر**».

وقد قيل: إنَّ قلوب الأبرار معلَّقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يُختم لنا؟ وقلوبُ المقرَّبين معلَّقة بالسوابق، يقولون: ماذا سَبَقَ لنا؟[1]

وقال بعضهم: «**أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكُفر**».

وعن عبدالرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «بات سفيان (أي الثوري) عندي فلما اشتد به الأمر جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب، فرفع شيئا من الأرض فقال: «**والله لذنوبي أهون عندي من ذا. إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت**».[2]

وبكى النَّخَعِيُّ عند الموت وقال: أنتظر رسولَ ربِّي، ما أدري أيُبَشِّرُني بالجنَّة أم بالنار؟

وجَزِعَ بعضُ الصحابة عِنْدَ موته، فسُئِل عن حالِه فقال: **إنَّ اللهَ قبَض**

١- «جامع العلوم والحكم» (ص ٨٧).

٢- «حلية الأولياء» (٧/ ١٢)، و«السير» (٧/ ٢٥٨).

خلقَه قبضَتين، قبضَةً للجنَّة وقبضة للنار ولست أدري فِي أيِّ القبضَتين أنا؟[١]

وقال السَّرِيُّ السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي لأنظُرُ إلى أَنفِي في كلِّ يوم مِرارًا مخافةَ أنْ يكونَ وجهي قد اسوَدَّ»، وقال أيضًا: «ما أحِبُّ أنْ أموتَ حيثُ أُعْرَف، فقيل له: ولِمَ ذلك يا أبا الحسَن؟ فقال: **أخافُ أنْ لا يقبَلَني قبري فأفتَضِحَ**»[٢]. والأخبار في هذا الباب كثيرة.

١- «الحجة في سير الدلجة» (١/ ٤٥٨) ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب».

٢- «حلية الأولياء» (١٠/ ١١٦)، و«السير» (١٢/ ١٨٦).

شُرورُ النفس كثيرة، والنَّاجِي مَن احتمَى منها

ومِن أسباب الخوف مِن الخاتمة أنَّ المؤمنَ يعلَمُ أنَّ كَمائنَ النَّفس كثيرةٌ، والفقيهُ مَن علِمَ خباياها، وسعَى في إصلاحها وهُداها، وهذا لا يكونُ إلَّا بالاعتماد على الله وصِدقِ التوكل عليه، وكمالِ الاستعانة به، سبحانه.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**فأمَّا الطَّبعُ فجَواذِبُه كثيرةٌ، وليس العَجَبُ أنْ يَغلِب، إنَّما العَجَبُ أنْ يُغلَب**». انتهى.

واحْـذَر كَـمَائِنَ نَـفْسِك الـلاَّتِي مَتَى   خَرَجَتْ عَلَيكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَـانِ

وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبة الحاجة: «**ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**»[2].

فإنَّ شرورَ النفس عظيمةٌ، والمُوَفَّقُ من علِمَها وسعَى لوَأْدِها قبل أنْ تُفسِد عليه خاتمتَه.

ومِن بدائع ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**رِياضَةُ الأنفُس أصعَبُ مِن رياضة الأُسْد**، لأنَّ الأُسْدَ إذا سُجِنَت في البيوت التي يتَّخِذُها الملوك، أُمِنَ شرُّها،

١- «صيد الخاطر» (ص ٨).

٢- رواه ابن ماجه (١٨٩٢)، والترمذي(١١٠٥)، والنسائي (٣٢٧٧)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣١٤٩).

٣- «الأخلاق» (ص ٥٣).

والنَّفسُ وإنْ سُجِنَت لم يُؤمَن شرُّها». انتهى

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[النساء: ٧٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وفي قوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ من الفوائد:

أنَّ العَبدَ لا يرْكَن إلى نفسِه، ولا يسكُن إليها، فإنَّ الشرَّ لا يجِيء إلَّا منها. ولا يشتغل بمَلام النَّاس ولا ذمِّهم إذا أساؤوا إليه، فإنَّ ذلك مِن السيِّئات التي أصابته، وهي إنَّما أصابته بذنوبه، فيرجعُ إلى الذنوب فيستغفر منها، ويستعيذ بالله مِن شرِّ نفسِه وسيِّئات عمله، ويسأل الله أنْ يُعِينه على طاعته. فبذلك يحصُل له كلُّ خير ويندفع عنه كل شر...

وهذا كان أنفعُ الدعاء وأعظمُه وأحكمه: دعاءَ الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٦ - ٧]، فإنَّه إذا هداه هذا الصراط أعانَه على طاعته وتركِ معصيته، فلم يُصِبْه شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكنَّ الذنوبَ هي مِن لوازم نَفْسِ الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كلِّ

---

١ - انظر: «الحسنة والسيئة» (ص ٨١)، و«شرح الطحاوية» (ص ٢٦٩).

لحظة، وهو إلى الهدى أحوجُ منه إلى الأكل والشرب.

ليس كما يقوله طائفة من المفسِّرين: إنَّه قد هداه، فلماذا يسأل الهُدى؟

وأنَّ المرادَ بسؤال الهُدى: الثباتُ أو مزيدُ الهداية...

وإنَّما يَعرِف بعضَ قَدْرِ هذا الدعاء مَن اعتبَرَ أحوالَ نفسِه ونُفوسِ الإنس والجنِّ، والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النُّفوس مِن الجهل والظُّلم الذي يقتضي شقاءَها في الدنيا والآخرة، **فيَعلم أنَّ الله** -بفضله ورحمته- **جعَلَ هذا الدعاءَ مِن أعظم الأسباب المقتضِيَة للخير، المانعة من الشر**.

ومما يبيِّن ذلك: **أنَّ اللهَ تعالى لم يقُصَّ علينا في القرآن قصَّةَ أحَدٍ إلَّا لنعتبِرَ بها، لما في الاعتبار بها مِن حاجتِنا إليه ومصلحتِنا**... فلولا أنَّ في نفوس الناس مِن جنس ما كان في نفوس المكذِّبين للرُّسُل -فرعون ومَن قبله- لم يكن بنا حاجةٌ إلى الاعتبار بمَن لا نشبهه قطُّ، ولكنَّ الأمرَ كما قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[فصلت: ٤٣]...

قال بعض العارفين: ما مِن نفْس إلَّا وفيها ما في نفْس فرعون، غيرَ أنَّ فرعون قدِرَ فأظهر، وغيره عجِزَ فأضْمَر...». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

منزلة الزُّهد وجمعيَّةُ القلب على الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَـزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِـوَى الرَّحْمَـنِ

أي: فرَّغوا قلوبَهم عن جميع ما يشغَل عن الله ويُبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد.[1]

وهذا، قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «**الزُّهد تركُ ما يشغَلُك عن الله**».[2]

فالسائرون إلى الله والدار الآخرة وقفُوا أنفسَهم على طاعة الله -جلَّ وعلا-، وقطَعوها عن كلِّ ما يشغَلُهم عن سيرهم إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، فهم يتقلَّبون في منازل السَّير إليه سبحانه، لا يشغَلُهم عنه شاغل، فهُم لله وبالله ومع الله، ومن كان على هذه الحال فإنَّه واصل إلى الله بإذنه ومنِّه، سبحانه.

١- قال شيخ الإسلام: «والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة... فأمَّا الزهد في النافع فجهل وضلال». انتهى. انظر: «الفتاوى» (١٠/ ٢٩٠)، و«فهارس الفتاوى» (٣٦/ ٦٧٧)، و«منزلة الزهد» في «مدارج السالكين» (١/ ٤٠١)؛ و«جامع العلوم والحكم» عند شرح الحديث رقم ٣١ من «الأربعين»، وهو حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الزهد.

٢- «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تلمَّح القومُ الوُجودَ ففهِموا المقصود، فأجمعوا الرَّحيل قبل الرَّحيل، وشمَّروا للسَّير في سواء السَّبيل، **فالنَّاسُ مشتغِلون بالفَضَلات، وهُم في قَطْع الفَلَوات**». انتهى.

وقال ابن سعدي معلِّقا على هذا البيت[2]: «**ولا يَكفِي هذا التَّفريغُ حتَّى يمتَلِئ القلبُ مِن الأفكار النَّافعة والعُزوم الصادقة**، فتكونُ أفكارُ العَبد في كلِّ ما يُقَرِّب إلى الرحمن، مِن تصوُّر عِلم، وتدبُّر قرآن، وذِكر الله بحُضور قلب، وتفكُّر في عبادة وإحسان، وخوف مِن زلَّة وعِصيان، أو تأمُّل لصفات الرحمن وتنزيهه عن جميع العيوب والنُّقصان، أو تفكُّر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنَّة ونعيمها والنار وجحيمها، **فأفكارُهم حائمة حول هذه الأمور، متنزِّهة عن دَنِيَّات الأمور والتفكُّر بما لا يُجدي على صاحبه إلَّا الهَمَّ والوَبال وتضييعَ الوقت وتشتيتَ البال غير نافع للعَبد في الحال والمآل**». انتهى.

فمَن أراد الفوزَ بالسعادة الأبديَّة، فليَلْزَم عَتَبة العُبوديَّة، وليشغل وقتَه بما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة.

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إنِّي لأَمْقُتُ الرَّجُلَ أنْ أراه فارِغًا، ليس في**

١- «الفوائد» (ص ٦٠).

٢- «شرح المنظومة» (ص ٣٠).

شيء مِن عمل الدنيا ولا عمل الآخرة».[١]

وقال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«أما يَستَحِي أحدُكُم أن لو نُشِرَت عليه صَحيفَتُه التي أملى صَدرَ نهارِه، كان أكثرُ ما فيها ليس مِن أمرِ دينِه ولا دُنياه».**[٢]

ومن جميل القول، ما ذكره ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: **«حَدُّ السُّخف: هو العمل والقول بما لا يُحتاج إليه في دين ولا دنيا»**. انتهى

وجاءَ في خاتمة «المقدمة العِزِّيَّة»[٤]: **«ينبغي للإنسان ألاَّ يُرى إلا مُحصِّلًا حسنةً لمعادِه، أو درهمًا لمعاشِه»**. انتهى.

ومصداق هذا في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٧ – ٨].

فقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي: إذا تفرَّغتَ مِن أشغالك، ولم يبقَ في قلبك ما يعُوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحدَه ﴿فَٱرۡغَب﴾

---

١ – «حلية الأولياء» (١/ ١٣٠).

٢ – «الصمت وآداب اللسان» لابن ابي الدنيا (٧٨).

٣– «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص ٣٩).

٤– وهي من المتون المختصرة عند المالكية، وصاحبُها: هو أبو الحسن علي بن خلف المنوفي المصري الشاذلي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المتوفَّى سنة ٩٣٩ هـ).

أي: أعظِم الرَّغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممَّن إذا فرَغُوا وتفرغوا لَعِبوا وأعرَضوا عن ربِّهم وعن ذكرِه، فتكونَ مِن الخاسرين.

انتهى، نقلًا عن «تفسير السعدي».

منزلة الصِّدق مع الله، والإخلاص، وإرادة وجه الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

حَـــرَكَاتُهُـــمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ ... للهِ لا لِلْـخَــلْقِ وَالشَّيْــطَــانِ

أشار هنا إلى ثلاثة أحوال قلبيَّة:

- **أوَّلها:** الحركة وهي مجرَّد الإرادة.
- **ثانيها:** الهمُّ وهو الإرادة المقترنةُ بالجزم.
- **ثالثها:** العَزْم وهو الإرادة المقترِنةُ بالجزم مع تهيُّئ فعل الأسباب المرادة.[1]

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**والعزم نوعان:**

- **أحدهما:** عزْمُ المريد على الدخول في الطريق، وهو مِن البدايات.
- **والثاني:** العزْمُ على الاستمرار على الطاعات بعد الدخول فيها، وعلى الانتقال مِن حالٍ كامل، إلى حالٍ أكملَ منه، وهو مِن

١- من تعليق شيخنا العصيمي على المنظومة (ص ٩). وانظر: «رسائل ابن رجب» (١/ ٣٧٣) ففيها تعريفات أخرى للعَزْم.

٢- «رسائل ابن رجب» (١/ ٣٧٣).

النهايات.

ولهذا سمى اللهُ تعالى خواصَّ الرُّسُل: أولوا العزم -وهم خمسة- وهم أفضل الرُّسُل». انتهى.

والمذكور في البيت مِن حركةٍ، وهمٍّ، وعزْمٍ، كلُّه لله، لا للخلق والشيطان. فالسائرون إلى الله لا يُراؤونَ الناسَ، ولا يطلُبون منهم ثناءً، وإنَّما يطلُبون الأجر مِن الله -جل وعلا-، ومَن طلب اللهَ بلَّغَهُ ما يريد، ومَن طلب رؤية الناس رُبَّما نالها في الدنيا، وجاء يومَ القيامة مفلِسًا.

وفي الحديث: «**ولكِنَّكَ قاتَلتَ لأَنْ يُقالَ جَرِيءٌ أو عَالِمٌ أو جَوَادٌ، فقد قِيلَ**».[1]

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «آهٍ مِن سِكِّير لم يَعلم قَدْرَ عَربَدَتِهِ إلَّا في وقت الإفاقَة». انتهى.

إنَّ منزلة الصِّدق مع الله والإخلاص له مِن أعظم ما يُوفَّقُ إليه المرْء، وهي سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا

١- رواه مسلم (١٩٠٥).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٥٩).

عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥ – ١٤٧].

فالمنافقون نفاقًا أكبرَ، الذين أخبر الله أنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: ١٤٢]، منزلتُهم عند الله ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.

«وليس لهم منقذ مِن عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعضَ عقابه، وهذا عام لكل منافق إلَّا مَن مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ له الظواهر والبواطن، ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، والتجأوا إليه في جَلْب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان لله.

فقصدوا وجهَ الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلِمُوا من الرياء والنفاق، فمَن اتَّصف بهذه الصفات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كُنْهَه إلَّا الله، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر.

وتأمَّل كيف خصَّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾، لأنَّ الاعتصام والإخلاص مِن جملة الإصلاح، لشِدَّة الحاجة إليهما خصوصًا في هذا المقام الحَرِج الذي يمكِّن مِن القلوب النفاق، فلا يزيله إلَّا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كلَّ المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقُّفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمَّل كيف لَمَّا ذكر أنَّ هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرا عظيما)، مع أنَّ السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لأنَّ هذه القاعدة الشريفة -لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد-، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابًا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتَّب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلَّا يتوهَّم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، **فهذا مِن أسرار القرآن البديعة، فالتائب مِن المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.**

ثمَّ أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ والحال أنَّ الله شاكر

عليم، يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومَن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه.

ومع هذا يعلم ظاهرَكم وباطنَكم، وأعمالَكم وما تصدَّر عنه مِن إخلاص وصدق، وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنَبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنَّه لا يتشفَّى بعذابكم، ولا ينتفع بعِقابكم، بل العاصي لا يضُرُّ إلَّا نفسَه، كما أنَّ عمل المطيع لنفسه».

قاله ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره».

أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحبة

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نِـــعْـمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبْلِ الَّتي   تُفْضِي إلى الخَــيْرَاتِ وَالإِحْسَـانِ

فهؤلاء النَّاس الذين تقدَّم وصفُهم في هذه المنازل، هُم أحقَّ النَّاس بالصُّحبة، وأولاهُم بالرُّفقة.

فإنْ كنتَ مصاحبًا، فاصحَب هؤلاء، وما لا يُدرك كلُّه لا يُترَك كلُّه، فإنَّ الناسَ في هذه الأحوال بين مستقِلٍّ ومستكثِرٍ، ولكنَّ هؤلاء هم الذين يسعَدُ العبدُ بصُحبتهم، وهُم الذين أمَرَ اللهُ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يصبِرَ نفسَه معهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨]، ونهاه أنْ يطردَهم، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٢].

من الآثار الحسنة لصُحبة الأخيار

ومِن لطيف ما ذُكِر، ما قاله ابنُ كثير مُتَحدِّثا عن كلب أصحاب الكهف، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولمَّا كانت التبَعِيَّة مؤثِّرة حتَّى كان في كلبِ هؤلاء، صار باقيًا معهم ببقائهم، لأنَّ مَن أحبَّ قومًا سَعِد بهم، فإذا كان هذا في حقِّ كلب فما ظنُّك بمَن تَبِع أهلَ الخير وهو أهلٌ للإكرام». انتهى.

قال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة. ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلَبة، والثعالب الخلَبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة». انتهى.

وفي الاتصال بالأخيار فوائدُ عديدةٌ، منها:[٣]

- أنَّ كسْبَ صداقةِ الأخيار، واغتنامَ أدعيتِهم في الحياة وبعد المَمات مِن أعظم المكاسب وأجَلِّ المغانم.

١- «البداية والنهاية» (٢/ ١٣٧)، وفي «تفسيره» نحوه.

٢- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص ١٧).

٣- انظر «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٨٠-٨٢).

- أنَّه بسببِ ذلك رُبَّما حصَل إفادةٌ واستفادةٌ مِن الطَّرَفين، أو نصيحةٌ مِن أحَدِ الجانِبين.
- أنَّه بسببِ ذلك يحصُل مِن الأدعية والتَّوجيهات القلبيَّة ما ينتفع به كُلٌّ منهما مِن الآخَر في الحياة وبعد المَمات.
- أنَّ هذا مِن البُشرى في الحياة الدنيا، فمتى وُفِّقَ العبدُ لمحَبَّة الصالحين وصُحبتهم والاتصال بهم، رُجِيَ أنْ يدخُلَ تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم: ٩٦]، أي: منه ومِن دعاء الصالحين.

من الآثار السيئة لصُحبة الأشرار

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، والجَلِيسِ السَّوْءِ، كحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ**[١]، **فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**[٢]**، وإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونَافِخُ الكِيرِ: إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**».[٣]

وفي الحديث: فضيلةُ صُحْبة الصالحين، وخطرِ مجالسة الطالحين مِن أهل الفِسق والفُجور والبدع والكفر.

سَتُحقر إنْ صحِبت الساقِطينَ والبطَّالين، فإنَّ العُزلةَ أفضلُ مِن صُحبة هؤلاء، ولَأن تكونَ وحدَك أفضلُ مِن أنْ تصحَب البطَّالين.

عليْكَ بأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا ... مُضَافًا لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وإِيَّـاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ ... فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِن عُلاكَ وَتُحْقَرا

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إنَّك أنْ تنقُلَ الحِجارةَ مع الأبرار، خيرٌ مِن أنْ تأكلَ الخَبِيصَ**[٤] **مع الفُجَّار**».[١]

١- الكير: منفخ الحداد الذي ينفُخ به النار.

٢- أي: يُعطيك.

٣- رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨)، واللفظ له.

٤- نوعٌ مِن الـحَلوى يُصنع مِن التمر والسَّمن.

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العاقلُ يَلزم صُحبَـة الأخيار، ويُفارِق صُحبَـة الأشرار، لأنَّ مَوَدَّةَ الأخيار سريعٌ اتصالُـها، بطيءٌ انقطاعُها، ومودَّةُ الأشرار سريعٌ انقطاعُها، بطيءٌ اتصالُـها. **وصُحبَة الأشرار تُورِث سوءَ الظَّنِّ بالأخيار، ومَن خادَن الأشرارَ لم يَسلَم مِن الدخول في جُملتهم.**

فالواجب على العاقل أنْ يجتنِبَ أهلَ الرَّيب لئَلَّا يكونَ مُريبًا، **فكما أنَّ صُحبَـةَ الأخيار تُورِث الخَير، كذلك صُحبَـةُ الأشرار تُورِث الشَّر**». انتهى.

قال شعيب بن حرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**لا تجلِس إلَّا مع أحدِ رجلين: رجلٍ جلستَ إليه يُعلِّمُكَ خيرًا فتقبلَ منه، أو رجلٍ تُعلِّمُه خيرًا فيقبلَ منك، والثالث: اهرب منه**».

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «صُحبَـةُ الأخيار تُوصِل العَبدَ إلى أعلى عِلِّيين، وصُحبَـةُ الأشرار تُوصِله إلى أسفل سافلين». انتهى.

وقال السَّرِيُّ السَّقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «**لا تصحَب الأشرارَ، ولا تشتغل عن**

=

١- «روضة العقلاء» (ص ١٠٠).

٢- المصدر السابق (ص ٩٩).

٣- «صفة الصفوة» (٢/ ٥).

٤- «بهجة قلوب الأبرار» (ص ١٨٥).

٥- «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢٥).

الله بمجالسة الأخيار».[١]

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾[آل عمران: ١١٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات: ٥٠ - ٥٧]، أي: كاد أن يَهلَك معه لو أطاعه، **لأنَّ صحبة الأشرار مِن أعظَمِ الخَطَر، وجالبةٌ لكلِّ ضَرَر**.[٢]

وفي مسائل «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب في قصة أبي جهل وعبدالله بنِ أبي أمية[٣] لأبي طالب وصَرْفِهما عن قول «لا إلـٰه إلا الله»،

١- «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢٥).

٢- انظر: «أضواء البيان» (٤/ ٣٣) عند تفسير: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[الكهف: ١٨].

٣- أخو أمِّ سَلَمَة، وابنُ عاتِكَة بِنْت عَبْد المطلب، وقد أسلم قبل فتح مكة بيسيرٍ، وحَسُن إسلامه، وشهد الفتح، واستُشهد في غزوة حُنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر: «الإصابة» (٤/ ١٠-١٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفيه مضَرَّة أصحابِ السُّوء على الإنسان**»، فينبغي الـحَذَرُ مِن قُربهم، والحذَرُ مِن الاستماع لهم.[١]

ومِن دقيق الاستنباط قولُ الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند شرح حديث: «**أَسْرِعُوا بالجَنَازَةِ، فإنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا عليه، وإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُم**»: «قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُم): **يؤخَذُ منه تركُ صُحبة أهلِ البِطالة غيرِ الصالحين**».

قلت: وهذا من فِقهه وشُفوفِ نَظَره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك أنَّه إذا كان غيرُ الصالح لا يصلُح أنْ يَصحَب المؤمِنَ وهو ميت، فما بالك بصُحبَته وهو حي!؟؟

١- انظر: «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» (ص ١٤٤).

قل لي مَن أصحابك، أقل لك مَن أنت

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**».[1]

ومَا صَـاحِبُ الإنـسَانِ إلاَّ كَـرُقـعَـةٍ عَـلَـى ثَـوبِـهِ فَـلـيَـتَّـخِـذْهُ مُـشَاكِـلاَ

قال أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**الإنسانُ مَوسومٌ بسيماء مَن قارَب، ومَنسوب إليه أفاعيلُ مَن صاحَب.**

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما مِن شيء أَدَلَّ على شيء، ولا الدُّخانُ على النار، مِن الصاحب على الصاحب.

وقال بعض الحكماء: اعرِف أخاك بأخيه قَبلَك.

وقال بعض الأدباء: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقَرِينِه». انتهى.

قلت: ومِن أمثال العرب: «مَن حَسُنَ صفاؤه وَجَب اصطفاؤه»، و«سَلْ عن الرَّفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار».

١- رواه أحمد (٤٨١٧)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٧).

٢- «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٧) باختصار.

الأُخُوَّة: ثلاثة أنواع

قال المأمون: **الإخوانُ على ثلاث طبقات:**[١]

- **فإخوانٌ كالغِذاء:** لا يُستغنَى عنهم أبدًا، وهُم إخوانُ الصفاء.
- **وإخوانٌ كالدواء:** يُحتاج إليهم في بعض الأوقات، وهُم الفقهاء.
- **وإخوانٌ كالداء:** لا يُحتاج إليهم أبدًا، وهُم أهلُ المَلَق[٢] والنفاق، لا خير فيهم.

قال ابن سعدي في منظومة «منهج الحق»:

وصَاحِبْ إذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ ... يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ
وإِيَّاكَ والْمَرْءَ الَّذِي إنْ صَحِبْتَهُ ... خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ
خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ ... كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

١- «الآداب الشرعية» (٤/ ٢١٩).

٢- المَلِق: الذي يعطي بلسانه ما ليس في قلبه.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نِـعْـمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي تُفْضِي إلى الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَـانِ

فالذي يصحَبُ هؤلاء هو الذي يكونُ أهلًا لأنْ يبلُغَ تلك الدرَجاتِ العُلَا.

والناظِرِ في الأُخُوَّة المعقُودة بين الخَلق يجِدُها مقسومةً على ثلاثة أنواع:[1]

- **أولها**: أُخُوَّة النَّسَب.
- **وثانيها**: أُخُوَّة النَّشَب -بالشين- .
- **وثالثها**: أُخُوَّة الطَّلَب.

فأمَّا أُخُوَّة النَّسَب: فهي الأُخُوَّة التي تَجمَع بين اثنين فأكثر في الانتساب إلى أبٍ، فالجامع لهم نُطْفَةُ ذلك الرَّجُل.

وأما أُخُوَّة النَّشَب: فهي الأُخُوَّة التي تَجمَع بين مُتَشَاكِلَين فأكثر في مال أو عقار، فإنَّ النَّشَب هو المال والعقار وأغراض الدنيا.

وأما أُخُوَّة الطَّلَب: فهي ما يجمَع بين مُتَوافِقَين في طلَبِ مقصودٍ فاضلٍ أو غيرِ فاضلٍ، ومطالب الخَلَق متفاوتة، **وأعظَمُ هذه الأُخُوَّة هي أُخُوَّة الدِّين والعِلم.**

١- من تعليق شيخنا العصيمي -وفقه الله- على «فصول في فضل العلم وأدبه» منتخبة مِن كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فأوْلى الناس أنْ تتأكَّد بينهم المَوَدَّةُ، وتنعَقِدَ بينهم المحبَّة، وأنْ يتعاضَدُوا ويتناصَرُوا هم طلَبَةُ العِلم والدِّين، وكلُّ ما يَفْصِمُ عُرْوَةَ المحبَّة والمَوَدَّة بينهم فإنَّه ممَّا يُضادُّ هذه الأُخُوَّةَ التي جاءت بها الشريعة.

وما أجملَ قولَ العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «حلية طالب العلم»[١]:

«فكما أنَّ العِرْقَ دسَّاس، فإنَّ «**أدَب السُّوء دسَّاس**»، إذ الطَّبيعةُ نقَّالة، والطِّبَاعُ سرَّاقة، والنَّاس كأسْرابِ القَطَا مجْبُولون على تشَبُّه بعضِهم ببعض، فاحذَر معاشَرَةَ مَن كان كذلك، فإنَّه العَطَب، «والدَّفع أسهل مِن الرَّفع».

وعليه، فتخيَّر للزَّمالة والصداقة مَن يُعِينك على مطلَبك، ويقرِّبك إلى ربِّك، ويوافقُكَ على شريفِ غَرَضِك ومَقْصَدِك، **وخُذْ تقسيمَ الصَّديق في أدَقِّ المعايير**:

١. صَدِيق منفَعَة.
٢. صَدِيق لذَّة.
٣. صَدِيق فضيلة.

فالأوَّلان مُنقطِعان بانقطاع موجِبهما، المنفعة في الأوَّل واللَّذة في الثاني.

وأمَّا الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعِثُ صداقَته تبادُل الاعتقاد في رُسُوخِ الفضائل لدى كل منهما.

١- ضمن «المجموعة العلمية» (ص ١٧١).

وصديق الفضيلة هذا «**عُملَةٌ صعبَةٌ**» يعَزُّ الحصولُ عليها» [١]. انتهى.

ومع هذا، فلا ينبغي للمسلم أن يضعُفَ سيرُه وإنْ قَلَّ الرَّفيق، وطال الطريق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٢]: «وينبغي أنْ لا يتوَقَّف العَبدُ في سَيرِه على هذه الغَنِيمة، بل يَسيرُ ولَوْ وَحِيدًا غَرِيبًا، فانفِرادُ العَبدِ في طريق طلَبِه دليلٌ على صِدْقِ المَحَبَّة». انتهى.

-تمَّ الشرح بحَمَدِ الله- [٣]

١- وللشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام حسن حول الصداقة في «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧-١٩)، فراجعه غير مأمور، فإنه مفيد جدا، والشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد استفاد منه في تقسيم الأصدقاء.

٢- «الرسالة التَّبوكية» (ص ٢٢٤).

٣- وآخر تعديل كان ظهر الخميس يوم التروية عام ١٤٤٣، الموافق لـ ٠٧ جويلية ٢٠٢٢، بمدينة «ليون»، بفرنسا.

هذا، واللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ المسؤولُ، المرجُو الإجابة، أنْ يجعل نفوسَنا مطمئنَّة إليه، عاكِفَةً بِهمَّتها عليه، راهِبَةً منه، راغِبَةً فيما لديه، وأنْ يُعِيذَنا مِن شُرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، وأنْ لا يجعلنا ممَّن أغفَل قلبَه عن ذكره واتَّبَع هواه وكان أمرُه فُرُطا، ولا يجعلَنا مِن الأخسرين أعمالًا الذين ضَلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يحسَبون أنَّهم يُحسِنُون صُنْعا.

إنَّه سميعُ الدعاء وأهلُ الرَّجاء، وهو حَسبُنا ونِعْمَ الوكيل.[1]

واللهُ أعلم، وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمد.

---

١ - ختم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه «الروح» بهذا الدعاء العظيم.

فهرس الموضوعات

تقريظ الشيخ أ. د. عاصم القريوتي ٣
تقريظ الشيخ د. محمد هشام الطاهري ٥
المقدمة ٧
نصُّ المنظومة ١٠
مدخل مهم بين يدي الشرح ١٢
معنى السير إلى الله ١٥
الوصول إلى الله يكون في الدنيا والآخرة ١٦
التحلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرذائل ١٩
منزلة الإخلاص والاتباع ٢٧
الإخلاص ٢٧
الاتباع وموافقة السنة ٣٢
منزلة الخوف والرجاء والمحبَّة ٣٦
منزلة الرجاء ٣٨
منزلة الخوف ٤٢
منزلة المحبة ٤٦
الأسباب الجالبة لمحبة الله للعبد ٥٣
منزلة الذكر ٥٥
القدْر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ٦٤
ذكر الله لا ينقطع حتى في الجنة ٦٧
فعل الطاعة وترك المعصية ٧٣
لا وَلاية ولا كَرَامة إلا بلزوم طريق الاستقامة ٧٦
المداومة على النوافل بعد الفرائض ٨١
الحَذَر من العُجب وأسبابه ٨٨
جواز مدح النفس عند الحاجة ٩٢
منزلة الصَّبر ٩٤
نكتة حول حديث: «والصَّبْرُ ضِيَاءٌ» ١٠٥
منزلة الرضا ١٠٩
هل الرِّضا بالمصائب واجب؟ ١١١
الرِّضا والمحبَّة مِن أحوال أهلِ الجنَّة ١١٦
منزلة الشكر ١١٧
منزلة التوكل ١٢٥

لا توكلَ بغير فعلٍ للأسباب ١٢٨
الفرق بين الثِّقة بالله والغُرورِ والعَجزِ ١٣١
حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعِهم هو أكمل الأحوال ١٣٣
منزلة الإحسان ١٣٦
لا تكن وليًّا في العلانية عدوًّا لله في السِّر ١٣٩
كمالُ حالهم في نُصح الخَلق ١٤٤
نكتة بديعة في أهميَّة الدَّعوة إلى التوحيد وخطر كتمانه ١٥٣
تَعلُّق قلوبهم بالله ١٥٤
منزلة الرِّعاية والخوف من سوء الخاتمة ١٥٧
الخوف مِن عدم قبول العمل ١٦٠
الخوف من سوء الخاتمة ١٦٦
مِن أسباب سوء الخاتمة ١٧١
حال السلف مع ذِكر الخواتيم ١٧٣
شُرورُ النفس كثيرة، والنَّاجِي مَن احتمَى منها ١٧٥
منزلة الزُّهد وجمعيَّةُ القلب على الله ١٧٨
منزلة الصِّدق مع الله، والإخلاص، وإرادة وجه الله ١٨٢
أصحاب هذه المنازل هم أحق الناس بالصحبة ١٨٧
من الآثار الحسنة لصُحبة الأخيار ١٨٨
من الآثار السيئة لصُحبة الأشرار ١٩٠
قل لي مَن أصحابك، أقل لك مَن أنت ١٩٤
الأُخُوَّة: ثلاثة أنواع ١٩٥
فهرس الموضوعات ٢٠٠

مشروع طباعة الكتب السلفية

مشروع

حسن بن علي الهاجري

-رحمه الله تعالى-

لطباعة الكتب السلفية

غفر الله له

وكل من شارك وساهم

ولوالديهم والمسلمين

تواصل معنا عبر تويتر
SalfiBooks

للتواصل واتساب 55558200
99753999

إمسح QR-Code للإطلاع
على المكتبة الإلكترونية